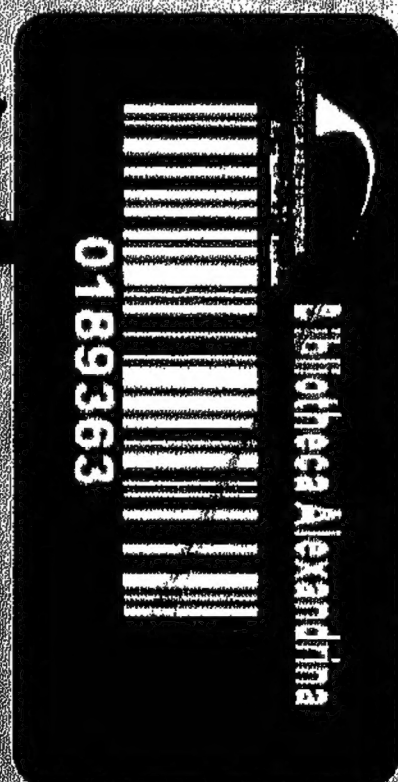


ماريو بارغاس يوسا



تداح الخالة



ترجمة: صالح علماني



امتداح الخالة

منشورات



Author : Mario Vargas Llosa, 1988

Title : Elogio de la madrastra

Translator: saleh Almani

Al- Mada : Publishing Company

First Edition 1999

Copyright © Al-Mada

اسم المؤلف : ماريو بارغاس يوسا

عنوان الكتاب : امتداح الخالة

ترجمة : صالح علماني

الناشر : المدى

الطبعة الأولى : ١٩٩٩

الحقوق محفوظة

دار مادة للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٢٧٧٢٠١٩ - ٢٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٢٧٧٣٩٩٢

بيروت - لسان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K A.

Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025

Damascus - Syria , P O Box . : 8272 or 7366 . Tel: 2776864 , Fax: 2773992

P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

ماريو بارغاس يوسا

امداح الخالة

ترجمة

صالح علماني



« ۱ »

عید میلادِ دُنیا لُکریثیا

في اليوم الذي أكملت فيه أربعين سنة من عمرها ، وجدت دونيا
لوكريثيا على وسادتها رسالة ذات خط طفولي ، مكتوبة بكثير من المحبة :

« عيد ميلاد سعيد يا خالتي!

لست أملك نقوداً لكي أهدي إليك أي شيء ، ولكنني سأدرس كثيراً ،
وسأنال المرتبة الأولى وتكون هذه هي هديتي إليك . أنت الأطيب والأجمل ،
وأنا أحلم بك كل ليلة .

عيد ميلاد سعيد مرة أخرى!

ألفونسو»

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بقليل وكان دون ريغوبيرتو في
الحمام منهمكاً في اغتساله وتنظيفاته المعقدة والبطيئة التي يقوم بها قبل
النوم . (فقد كانت النظافة الجسدية ، بعد لوحات الرسم الايروتيكية ، هي
عمله المفضل لتزجية الوقت ؛ أما النظافة الروحية فلم تكن تهمه كثيراً) .
وقد تأثرت دونيا لوكريثيا برسالة الطفل وأحست بدافع لا يقاوم يدفعها
للذهاب لرؤيته وتقديم الشكر له . فتلک السطور هي دليل على قبولها ضمن

الأسرة حقاً . أياكون مستيقظاً ؟ وما أهمية ذلك! إن لم يكن مستيقظاً ،
ستقبل جبهته بحذر كبير كيلا توقظه .

بينما هي تنزل درجات السلم المغطاة بالسجاد في البيت الغارق في
الظلام ، متوجهة إلى غرفة نوم ألفونسو ، كانت تفكر : « لقد كسبته إلى
جانبي ، لقد صار يحبني » . وبدأت مخاوفها القديمة من الطفل تتبخر مثل
سحابة ضباب خفيفة تنخرها شمس ليما الصيفية . لقد نسيت أن تلقي على
جسدها الروب البيتي ، فهي عارية تحت قميص نومها الحريري الأسود ،
وتكوراتها البيضاء الوافرة التي ما زالت صلبة متماسكة ، تبدو وكأنها تطفو
في الظلمة التي تقطعها انعكاسات أضواء الشارع . كان شعرها الطويل
مفلتاً ، ولم تكن قد خلعت أقراط وخواتم وعقود الحفلة .

كانت غرفة الطفل مضاعة . - أجل ، ففوتتشو يقرأ حتى وقت متأخر
جداً! - طرقت دونيا لوكريثا بفقرات أصابعها ودخلت : « ألفونسيتو! » .
وفي مخروط الضوء الأصفر الذي يبعثه مصباح السرير ، أطل وجه طفل
يسوع مذعور من وراء كتاب لآلكسندر دumas . خصل الشعر الذهبي
المشعث ، الفم المفتوح قليلاً بسبب المفاجأة بيدي صفي أسنان ناصعة
البياض ، العينان الكبيرتان الزرقاوان الزائغتان تحاولان تبيينها في ظلمة عتبة
الباب . بقيت دونيا لوكريثا جامدة ، تتأمل بهذوبة . يا للطفل الجميل!
ملاك منذ مولده ، واحد من غلمان تلك اللوحات الفاجرة التي يخبئها زوجها
وراء أربعة أقفال .

- أهذه أنت يا خالتي ؟

- أي رسالة جميلة كتبتها لي يا فوتتشو . إنها أفضل هدية عيد ميلاد
تلقيتها طوال حياتي ، أقسم لك .

كان الطفل قد نهض ووقف على قدميه فوق السرير . وكان يتسم لها

وذراعه مفتوحان . وبينما دونيا لوكريشيا تتقدم نحوه مبتسمة أيضاً ، فوجئت - أم تراها حدثت ؟ - في عيني ابن زوجها ، بنظرة تتحول من السعادة إلى الاضطراب وتنصبّ ذاهلة على قامتها ، ففكرت : « رباه ، إنك شبه عارية . كيف نسيت ارتداء الروب أيتها الحمقاء . أي مشهّد هذا بالنسبة إلى الصغير المسكين . » أتكون قد شربت كؤوس خمر أكثر مما يجب ؟

ولكن ألفونسيتو عانقها : « عيد ميلاد سعيد يا خالتي ! » كان صوته الطازج المنطلق دون قلق يعيد الحيوية إلى الليل . أحست دونيا لوكريشيا بشبح القامة ذات العظام الهشة يلتصق بجسدها وفكرت بعصفور صغير . وخطر لها بأنها إذا ما ضمته بقوة أكبر ، فإن الطفل سينكسر مثل نبتة كاريشو . وهكذا ، بينما هو فوق السرير ، كانا متساويين في طول القامة . كان قد طوق عنقها بذراعيه النحيلتين وراح يقبلها بحب من خدها . وعانقته دونيا لوكريشيا أيضاً ، وأنزلت إحدى يديها إلى أسفل قميص البيجاما ذات اللون الأزرق البحري والحواف الحمراء ، وداعبت ظهره وربتت عليه ، شاعرة في أطراف أصابعها بتدرج عموده الفقري الهش . « أحبك كثيراً يا خالتي » ، همس الصوت النحيل في أذنها ، وأحست دونيا لوكريشيا بشفتين نحيلتين تتوقفان عند شحمة أذنها ، تدفئانها بأنفاسهما ، تقبلانها وتعضانها لاعبتين . وبدا لها أن ألفونسيتو يضحك في الوقت الذي يتودد فيه إليها . كان صدرها طافحاً بالتأثر والانفعال . وفكرت كيف أن صديقاتها كن قد تنبأن بأن ابن زوجها هذا سيكون العقبة الكبرى ، وأنها بسببه لن تكون سعيدة أبداً مع ريغوبيرتو . وفي خضم تأثرها وانفعالها ، قبلته أيضاً من خديه ، من جبهته ، من شعره المشعث ، بينما كان إحساس غامض ، كأنه آت من بعيد ، دون أن تدركه جيداً ، يتسرب بين فينة وأخرى من جسدها ،

متركزاً بصورة خاصة في تلك الأجزاء - النهدين ، البطن ، ظاهر الفخذين ،
العنق ، الكتفين ، الخدين - المعرضة لملامسة الطفل . « هل تحبني كثيراً
حقاً ؟ » سألته وهي تحاول الابتعاد عنه . لكن ألفونسيتو لم يفلتها ، بل إنه
تعلق بها وهو يجيبها مترنماً : « كثيراً جداً يا خالتي ، أنت أكثر من أحبه » .
ثم أمسكت يده الصغيرتان بصدغيها ودفعتا رأسها إلى الوراء . أحست دونيا
لوكريثيا بنقرة في جبهتها ، في عينيها ، في حاجبيها ، في خديها ، في
ذقنها... وعندما لامست الشفتان النحيلتان شفتيها ، ضغطت على أسنانها
مضطربة ، أي فهم فونتشييتو ما الذي يفعله ؟ هل يتوجب عليها أن تبعده عنها
بعنف ؟ ولكن لا ، لا ، كيف يمكن أن يكون هناك أدنى قدر من الخبث في
التنقل المتقافز لهاتين الشفتين اللتين حطتا لحظة ، مرتين... ثلاث مرات على
شفتيها وضغطتا بنهم وهما تجوبان جغرافية وجهها .

- حسن ، والآن إلى النوم - قالت أخيراً وهي تفلت من الطفل . وبذلت
جهداً أكبر لتبدو أكثر سكوناً مما هي عليه ، ثم أضافت : - وإلا لن تستيقظ
من أجل الذهاب إلى المدرسة يا صغيري .

دس الطفل نفسه في السرير منصاعاً . كان ينظر إليها مبتسماً ،
بخدين متوردين ونظرة افتتان . أي خبث يمكن أن يكون فيه! هذا المخلوق
النقي ، عيناها الفرحتان... الجسد الصغير الذي ينكمش ويتقوقع تحت
الملاءات ، أليس تجسيداً للبراءة ؟ أنت هي المتعفنة يا لوكريثيا! دثرته ،
سوت وسادته ، قبلت شعره وأطفأت مصباح السرير . وحين كانت تخرج
من الغرفة ، سمعته يغرد :

- سأحصل على المرتبة الأولى في المدرسة وأهديها إليك يا خالتي!

- أهذا عهد يا فونتشييتو ؟

- كلمة شرف!

وفي حميمية السلم المتواطئة ، بينما هي عائدة إلى مخدعها ، أحست
دونيا لوكريثيا بأنها تتوقد من قدميها إلى رأسها . وقالت لنفسها مذهولة :
« ولكنها ليست حمى » . أيمن لمداعبة طفل غير واعية أن تسبب لها
ذلك ؟ إنك تتحولين إلى داعرة يا امرأة . أتكون هذه هي أول أعراض
الشيخوخة ؟ لأنها في الواقع كانت تلتهب وكانت ساقاها مبللتين . يا للعار يا
لوكريثيا ، يا للعار ! وفجأة عبرت رأسها ذكرى صديقة خليعة كانت قد أثارت
مشاعر الحياء والضحكات العصبية على طاولتها أثناء حفلة شاي لجمع
تبرعات للصليب الأحمر ، حين روت لهن أنها تنام عارية مع ابن زوجها
الصغير الذي يحك لها ظهرها ، فتأجج مثل شعلة .

كان دون ريغوبيرتو مستلقياً على ظهره ، عارياً فوق الفراش الأحمر
القاني المطبع برسوم تشبه العقارب . وكان لا يكاد يظهر منه على وميض
الأنوار المتسربة من الشارع إلى الغرفة مظفاة الأنوار ، سوى شبحه الطويل
الأبيض ، والشعر الكثيف على الصدر والعانة . وقد بقي ساكناً بينما كانت
دونيا لوكريثيا تنزلق وتتمدّد بجانبه ، دون أن تلمسه . أيكون زوجها قد
نام ؟

- أين ذهبت ؟ - سمعته يدمدم بالصوت اللزج والبطيء لرجل يتكلم
بخرخرة الوهم ، الصوت الذي تعرفه جيداً - لماذا تركتني يا حياتي ؟
- ذهبت لأقبل فوتتشيرو . لقد كتب لي رسالة عيد ميلاد لا يمكنك
تخيلها . كنت على وشك البكاء من شدة رقتها .

حدست أنه لا يكاد يسمعها . أحست بيد دون ريغوبيرتو اليمنى
تلامس فخذا . إنها حارقة ، مثل مضخة ماء يغلي . وبحشت أصابعه بتعثر ما
بين طيات قميص نومها . ففكرت بقلق : « أترأه سيلاحظ أنني مبللة » . كان
قلقاً عابراً ، لأن موجة الاحتدام نفسها التي استولت عليها وهي على السلم ،

عادت إلى جسدها ، وجعلته يرتعش . بدا لها أن كل مساماتها تتفتح متلهفة وتنتظر .

- وهل رأيك فونتشيتو وأنت بقميص النوم ؟ - تخيل صوت زوجها ملتهباً . - لا بد أنك قد أوحيت بأفكار خبيثة إلى الصغير . ربما سيحلم هذه الليلة أول أحلامه الايروتيكية .

سمعتة يضحك متهيجاً ، وضحكت هي أيضاً : « ما الذي تقوله يا مجنون » . وتظاهرت في الوقت نفسه بأنها تضربه ، وتركت يدها اليسرى على بطن دون ريفوبيرتو . ولكن ما لمستة يدها كان سارية بشرية منتصبية ونابضة .

- ما هذا ؟ ما هذا ؟ - هتفت دونيا لوكريشيا وهي تضغط عليه ، وتشده ، وتقلته ، وتستعيده - ، انظر ما الذي وجدته ، يا للمفاجأة !

كان دون ريفوبيرتو قد رفعها فوقه وراح يقبلها بتلذذ ، مرتشفاً شفيتها ، ومباعداً ما بينهما . وبينما عيناها مغمضتان ، وهي تحس بطرف لسان زوجها يستكشف تجويف فمها ، ماراً على اللشتين والحلق ، محاولاً تذوق كل شيء ، والتعرف عليه ، بقيت دونيا لوكريشيا لوقت طويل غارقة في ذهول سعيد ، إحساس كثيف ونابض بدا وكأنه يلين أعضائها ويفتحها ، ويجعلها تطفو ، تفرق ، تدور . وفي عمق ذلك الإعصار اللذيذ كانت هي ، والحياة ، وكأنها تطل وتختفي في مرآة تفقد زئبقها ، ترسم أحياناً وجهاً دخيلاً لملاك أشقر . كان زوجها قد رفع قميص نومها وأخذ يداعب إلتيتها في حركة دائرية ومنهجية ، بينما هو يقبل نهديتها . سمعتة يدمدم بأنه يحبها ، ويهمس بعذوبة أن حياته الحقيقية قد بدأت معها . قبلته دونيا لوكريشيا من عنقه وعضعت حلمتي صدره إلى أن سمعتة يتأوه ، ثم لحست ببطء عشي إبطيه اللذين يهيجانه كثيراً ، واللذين كان دون ريفوبيرتو قد

غسلهما وعطرهما لها بعناية قبل أن ينام . سمعته يخرخر مثل قط مدلل ،
يتلوى تحت جسدها . وأخذت يدها المتسرعان تبعدان ما بين ساقى دونيا
لوكريثيا بشيء من الحنق . تجلسانها القرفصاء فوقه ، تريحانها ، تفتحانها .
أنت متألمة ومستمتعة بينما هي ترى في زوبعة مشوشة صورةً للقديس
سيباستيان مصاباً بسهم ، مصلوباً ومبلاً . راودها إحساس بأنها قد نُطحت
في منتصف قلبها . ولم تتمهل بعدئذ . فقد أغمضت عينيها ، ووضعت يديها
وراء رأسها ، ودفعت صدرها إلى الأمام ، ممتطية مهر الحب ذاك الذي
يتأرجح بها ، على إيقاعه ، مدمماً بكلمات تكاد لا تكون مفهومة ، إلى أن
أحس بأنه يموت .

وسأله مستفهمة وهي في العماء :

- من أنا ؟ من تراني كنت ؟

وانفجر دون ريفوبيرتو تائهاً في حلمه :

- أنتِ زوجة ملك ليديا يا حبي .

« ۲ »

قنداولس، ملك ليديا^(۱)

أنا قنداوولس ، ملك ليديا ، البلد الصغير الواقع ما بين جونيا وكاريا ،
في قلب تلك الأراضي التي ستُعرف بعد قرون باسم تركية . أكثر ما يسبب
لي الفخر في مملكتي ليس جبالها المتشقة بفعل الجفاف ، ولا رعاة ماعزها
الذين يسارعون إذا اقتضى الأمر إلى مواجهة الغزاة الفريجيين والإيوليين
والدوريين الآتين من آسيا ، ويهزمونهم ، أو يتصدون للعصابات الفينيقية
والإسبارطية وللبدو الرحل الاسثيتيين الذين يأتون لسلب حدودنا ، وإنما
مصدر فخري هو ردف زوجتي لوكريشيا .

أقول وأكرر : ردف . لا مؤخرة ، ولا كفل ، ولا إلتان ، ولا طيز ، ولا
ورك ، وإنما ردف . لأنني عندما أمتطيها يراودني هذا الإحساس : إحساس
من يكون فوق مهرة عضلية ومخملية ، مزيج من الأعصاب والرقعة الخالصة .
إنه ردف قاسٍ وربما هو ضخمة جداً مثلما تقول الأساطير التي تشاع عنه في
المملكة ، مضخمة مخيلة رعيتي (تصل إلى مسامعي كل تلك الأساطير
ولكنها لا تغضبني ، بل تفرحني) . عندما أمرها بأن تجثو وتلصق جبهتها

(١) راجع اللوحة رقم (١) .

بالسجادة ، بحيث أستطيع تفحصها على هواي ، يصل ذلك الشيء إلى حجمه
القاتن الأقصى . كل فلقة منه فردوس لحمي ؛ وكلتاها ، تفصل بينهما هوة
حساسة ذات زغب يكاد لا يكون مرئياً يغوص في غابة البياض والسواد
والحرير العابق الذي يتوج عمودي الفخذين الراسخين ، فيذكراني بأحد
مذابح ديانة البابليين الهمجية التي محوناها . إنه ردف صلب عند اللمس
وعذب في الشفتين ؛ فسيح في الاحتضان ودافئ في الليالي الباردة ، ووسادة
طرية لإراحة الرأس ، ومولد للذات في الهجمات الغرامية . ولوجه ليس
سهلاً ؛ بل هو أقرب إلى الألم في البدء ، ويصل إلى حد البطولة بالمقاومة
التي يبديها هذا اللحم الوردي للهجوم الذكري . لا بد من إرادة عنيدة
وقضيب قوي ومثابر لا يرتدعان أمام أي شيء ، أو أحد مثلما هما إرادتي
وقضيبي .

عندما قلت لجيجيس ، ابن داسيلو ، حارسي ووزيرني بأنني فخور
بمآثر عضوي مع لوكريثيا على السرير الفاخر ذي الستائر الذي في
مخدعنا أكثر من اعتزازي بمآثري في ميدان المعركة أو إنصافي في إقامة
العدل ، احتفل هو ضاحكاً بما ظنه مزحة . ولكنها لم تكن مزحة ؛ لأنني
أشعر بذلك فعلاً . وأشك في أنه يمكن لكثيرين من أهالي ليديا أن
ينافسوني . في إحدى الليالي - وكنتُ مخموراً - ومن أجل التقصي فقط ،
استدعيت أطلس إلى حجرتي ، وهو أفضل العبيد الحبشيين تحت السلاح .
وطلبت من لوكريثيا أن تنحني أمامه وأمرته بأن يمتطيها . لم يستطع
ذلك ، ربما بسبب الرهبة التي اعترته في حضوري أو لأن الأمر كان تحدياً
يفوق قواه . رأيت أنه يتقدم عدة مرات ، حاسماً أمره ، يندفع ، يلهث ، ثم
يتراجع مهزوماً (وبما أن تلك الواقعة صارت تعذب ذاكرة لوكريثيا ، فقد
أمرتُ بقطع رأس أطلس) .

الواقع أنني أحب الملكة . فكل ما في زوجتي عذب وحساس ، على خلاف روعة ردفها الوافر : يداها وقدمها ، خصرها وفمها . لها أنف راعش وعينان ناعستان ، ماؤهما ساكن بصورة سرية لا يهزه سوى اللذة أو الغضب . لقد درستها مثلما يفعل الحكماء بأوراق كتب المعبد ، ومع أنني أظن أنني أعرفها عن ظهر قلب ، فإنني أكتشف في كل يوم - أو بكلمة أصح ، في كل ليلة - ، شيئاً جديداً فيها يؤثر بي : خط الكتفين الناعم ، عظمة المرفق الرشيقة ، رقة ظاهر قدميها ، استدارة ركبتيها والشفافية الزرقاء لغابة إبطيها .

هناك من يملون زوجتهم الشرعية بسرعة . ويفلسفون الأمر بأن روتين الزواج يقتل الشهوة ، وأنه لا يمكن للخيال أن يدوم ويهيج أوردة الرجل الذي يضاجع المرأة نفسها على امتداد شهور وسنوات . أما أنا ، وعلى الرغم من السنوات التي انقضت على زواجنا ، فإن سيدتي لوكريشيا لم تملني . ولم تضجر مني مطلقاً . فعندما أذهب لصيد النمر أو الفيل ، أو حين أخرج إلى الحرب ، تُسرّع ذكراها قلبي مثلما كان يحدث في الأيام الأولى ، وحين أداعب إحدى الجاريات أو أية امرأة لأشغل وحدتي في ليالي خيمة الحملة الحربية ، تحس يداي على الدوام بخيبة محزنة : فما ألمسه يكاد لا يكون سوى مؤخرات ، إليات ، أكفال ، أطياز . وهي وحدها - آه ، حبيبتي - الردف . ولهذا يبقى قلبي وفياً لها ، ولهذا أحبها . ولهذا أنظم لها قصائد أرتلها في مسمعها وأنبطح أرضاً حين نكون وحدنا لأقبل قدميها . ولهذا ملأت صناديق حليها وكل خزائنها وأوصيت لها من كل أركان العالم على هذه الأحذية والملابس والزينات التي لن تنتهي من تدشينها أبداً . ولهذا أعني بها وأوقرها باعتبارها ألد ممتلكات مملكتي . فالحياة بالنسبة إلي هي موت دون لوكريشيا .

القصة الحقيقية لما حدث مع حارسي ووزيرى جيجيس لا تشبه كثيراً التقولات التي تشاع عن الواقعة . وليست هناك رواية واحدة مما سمعته تقارب الحقيقة . والأمر يجري هكذا على الدوام : فمع أن للخيالي والحقيقي القلب نفسه ، إلا أن وجهيهما مثل الليل والنهار ، مثل النار والماء . لم يكن هناك رهان أو مقايضة من أي نوع ؛ وكل شيء جرى بصورة مرتجلة ، بفعل تلقائية مفاجئة من جانبي... مجرد صدفة أو مكيدة من إله صغير لعب .

كنا قد حضرنا احتفالاً لانهائياً في ميدان مجاور للقصر ، حيث جاءت القبائل الخاضعة لتقدم اتاواتها وهي تصم مسامعنا بأغنياتها الهمجية وتعمي أبصارنا بالغبار الذي تثيره بهلوانيات فرسانها . ورأينا كذلك اثنين من هؤلاء المشعوذين الذين يشفون الأمراض برماد الجثث ، وقديساً يصلي وهو يلف ويدور على كعبيه . وقد كان هذا الأخير مؤثراً ؛ ففي دورانه المندفع بقوة إيمانه وبالتمارين التنفسية التي ترافق رقصته - لهاث أبح متصاعد يبدو وكأنه يخرج من أعماقه - تحول إلى دوامة بشرية ، وفي لحظة معينة ، أدت سرعة دورانه إلى اختفائه عن أبصارنا . وعندما تجسد ثانية وتوقف ، كان يتعرق مثل الخيول بعد شن الغارة ، وكان شحوبه ذاهلاً وعيناه زائغتين وكأنهما قد رأتا إلهاً أو عدة آلهة .

كنا نتحدث أنا ووزيرى عن المشعوذين وعن ذلك القديس بينما نحن نتناول كأس نبيذ يوناني ، عندما خفض جيجيس صوته فجأة ليهمس بشرارة الخبث تلك التي يودعها الشراب في نظرتة :

- المصرية التي اشتريتها لها أفضل مؤخرة منحتها الإلهية لامرأة على الإطلاق . الوجه غير مكتمل ؛ والنهدان صغيران ، وهي تتعرق بإفراط ؛ ولكن ضخامة وسخاء مؤخرتها تعوض - وأكثر - عن كل عيوبها الأخرى . ما إن أتذكرها حتى يصيبني الدوار يا صاحب الجلالة .

- أرني هذه المؤخرة وسأريك واحدة أخرى . فنقارن ونقرر أيهما أفضل
يا جيجيس .

رأيته يضطرب ، يرمش ويفتح شففيه دون أن يقول شيئاً . أترأه ظن
بأنني أمزح ؟ أترأه خشي أن يكون قد أساء سماع ما قلته ؟ فحارسي
ووزير يعرف جيداً عمن أتكلم . وصفت ذلك السؤال دون تفكير ، ولكنني
بعد أن وجهته إليه ، بدأت دودة عذبة تقرض دماغي وتسبب لي اللهفة :

- لقد أصابك البكم يا جيجيس . ما الذي جرى لك ؟

- لست أدري ما أقول يا مولاي . إنني مرتبك .

- أرى ذلك . ولكن أجب . هل توافق على عرضي ؟

- جلالتك تعلم أن رغباتكم هي رغباتي .

هكذا بدأ كل شيء . ذهبنا أولاً إلى منزله ، وفي أقصى الحديقة ، حيث
توجد حمامات البخار ، وبينما كنا نتعرق وكان مدلكه يعيد حيوية الشباب
إلى أعضائنا ، تفحصت تلك المصرية . إنها امرأة طويلة القامة ، ووجهها
متضرر بتلك القروح التي يقدر بها أبناء جنسها الفتيات البالغات لإلههم
الدموي . لقد خلفت الشباب وراءها . ولكنني أقر بأنها كانت مشوقة
وجذابة . فبشرتها الأبنوسية تلمع وسط سحب البخار وكأنها مطلية
بالورنيش وكل حركاتها وتصرفاتها تكشف عن تكبر استثنائي . لم يكن
فيها أي أثر من ذلك التذلل الدنيء الذي تبديه الجاريات بكثرة لنيل ودة
أسيادهن ، بل كانت أقرب إلى البرودة المتأنقة . ولم تكن تفهم لغتنا ولكنها
كانت تفهم على الفور التعليمات التي يصدرها إليها سيدها بالإشارة . وعندما
أشار عليها جيجيس بما نريد أن نراه ، أحاطتنا كلينا لشوان بنظرتها
الحريرية والمزدرية ، ودارت نصف دورة ، وانحنيت ثم رفعت عباءتها بكلتا
يديها ، مقدمة لنا عالمها الخلفي . كانت باهرة بالفعل ، بل وإعجازية لمن

ليس هو زوج الملكة لوكريشيا . أجل ، إنها صلبة ومكورة . ذات انحناءات ناعمة وبشرة جرداء وحبيبية ، تشع بريقاً أزرق ، ينزلق عليها البصر مثلما ينزلق على مرأى البحر . هنأتها وهنأت كذلك حارسي ووزيرى لأنه مالك مثل هذه اللذة الحلوة .

ولكى أنجز الجزء المتعلق بي من العرض ، كان علينا أن نتصرف بأقصى قدر من الحذر . فتلک الحادثة القديمة مع العبد أطلس شكلت صدمة عميقة لامرأتي ، وقد قلت هذا من قبل ؛ إذ أنها وافقت عليها لأن لوكريشيا تلبي كل نزواتي . ولكنني رأيتها خجلة جداً بينما كانت هي وأطلس يمثلان دون جدوى المشهد الخيالي الذي نسجته ، فأقسمت يومئذ بيني وبين نفسي ألا أخضعها ثانية إلى مثل تلك التجربة . وحتى الآن ، وبعد مضي زمن طويل على تلك الحادثة ، وحين لم يعد هناك من أطلس المسكين كما أظن سوى عظامه الجرداء في وهدة الجثث التي تغص بطيور الرخمة والنسور حيث ألقيت جثته ، ما زالت الملكة تستيقظ أحياناً في الليل ، وتفرز قلقة إلى ذراعي ، ذلك أن شبح الحبشي يكون قد عاد يلتهب فوقها في الحلم .

وهكذا ، فقد تصرفْتُ في هذه المرة دون أن تعرف محبوبتي بالأمر . أو هذه كانت نيتي على الأقل ، مع أن الشك يراودني في ذلك أحياناً حين أفكر متروياً بما حدث في تلك الليلة وأقلبه في ثنايا ذاكرتي .

أدخلتُ جيغيس من بوابة الحديقة الخلفية ثم أدخلته الحجرة بينما الوصيفات يعرين لوكريشيا ويعطرنها بالعطور التي أحب شمها وتذوقها على جسدها . أشرت على وزيرى أن يختبئ وراء ستارة الشرفة وأن يحاول عدم التحرك أو إصدار أدنى صوت . ومن ذلك الركن ، يمكنه أن يرى تماماً السرير البديع ذا الأعمدة المزخرفة والدرجات والستائر الحمراء ، والمثقل بالوسائد والحرائر الثمينة المطرزة ، حيث نمارس أنا والملكة كل ليلة

لقاءاتنا الغرامية . وأطفأت كل المشاعل بحيث تبقى الغرفة خافتة الإضاءة من
السنة لهب المشاعل التي في البيت .

بعد قليل دخلت لوكريشيا ترفل بعباءة فضفاضة شفافة من الحرير
الأبيض ، ذات زركشات مخرمة على المعصمين والعنق ومحيط الذيل .
وكانت تضع عقداً من اللؤلؤ وغطاء رأس وتنتعل خفاً عالي الكعب من الخشب
واللبد .

أبقيتها واقفة لبعض الوقت ، أتأملها بإعجاب بعيني وأهدي إلى وزير
هذا المشهد الذي يليق بالآلهة . وبينما أنا أتأملها وأفكر في أن جيجيس
يفعل ذلك أيضاً ، أجبني فجأة بالشهوة هذا التواطؤ الخبيث الذي يوحدنا .
فتقدمت نحوها دون أن أنطق بكلمة واحدة ، وطرحتها على الفراش
وامتطيتها . وبينما أنا أداعبها ، بدا لي وجه جيجيس الملتحي ، فزادت من
التهابي فكرة أنه يرانا ، ورشت على لذتي بهاراً حلواً وحامضاً ولاذعاً كنت
أجهله حتى ذلك الحين . وماذا عنها هي ؟ أتراها لاحظت شيئاً ؟ هل عرفت
شيئاً ؟ لأنني لم أرها من قبل أبداً بمثل ذلك الاندفاع ، ولم أرها مطلقاً بمثل
تلك الشراهة في المبادرة والاستجابة ، وبمثل تلك الجسارة في العض
والتقبيل والعناق . أتراها هجست في تلك الليلة بأننا من كنا نسنمتع في
الغرفة المصبوغة بحمرة القنديل والشهوة لم نكن اثنين وإنما ثلاثة .

وعند الفجر ، حين استغرقت لوكريشيا في النوم ، تسللت من السرير
على رؤوس أصابعي ، لكي أقود حارسي ووزير إلى مخرج الحديقة ،
فوجدته يرتجف من البرد والذهول .

تلعثم متهيجاً ومرتعشاً :

- أنت محق يا صاحب الجلالة . لقد رأيتها ، وهي رائعة بصورة لا
أستطيع تصديقها . لقد رأيتها ومازلت أظن أنني في حلم .

فأمرته :

- انس كل شيء بأسرع ما يمكن وإلى الأبد يا جييجيس . لقد أنعمتُ عليك بهذا الامتياز في لحظة تسرع غريبة ، ودون تفكير وتروٍ ، لأنني أقدرك كثيراً . ولكن ، حذار من لسانك . فأنا لا أحب أن تتحول هذه القصة إلى حديث الحانات وتقولات السوق . لأنني قد أندم على أنني أحضرتك إلى هنا .

أقسم لي أنه لن ينطق بكلمة واحدة . ولكنه فعل ذلك . وإلا كيف دارت كل تلك الأحاديث عما حدث ؟ الروايات تتناقض ، وكل واحدة منها أكثر شططاً وزيفاً من الأخرى . إنها تصل إلينا ، وإن كنا نغضب بسببها في البداية ، فإننا نتسلى بها الآن . لقد تحول الأمر إلى جزء من هذه المملكة الجنوبية ، في هذه البلاد التي سيصبح اسمها تركية بعد قرون ، مثل جبالها القاحلة ورعاياها الأفظاظ ، مثل قبائلها المتنقلة ، ونسورها ودببتها . ولا تسؤوني في نهاية المطاف فكرة أنه بعد مرور الزمان ، وابتلاعه كل ما هو موجود ومحيط بي الآن ، لن يبقى للأجيال القادمة في تاريخ ليديا ، سوى ردف زوجتي لوكريثيا الشمسي والسخي كالربيع .

« ٣ »

أذنا يوم الأربعاء

«إنهما مثل القواقع التي تحبس في متاهتها الصدفية موسيقى البحر» ،
هذا ما تخيله دون ريغوبيرتو . فقد كانت أذناه كبيرتين جداً ومرسومتين
جيداً ؛ وكلتا هما ، وإن كانت اليسرى بصورة أساسية ، تنزعان إلى الابتعاد
عن رأسه في الأعلى وتنحني كل منهما ملتفة على نفسها ، مصممتين على أن
تحتكرا لأنفسيهما وحدهما كل ضجيج العالم . ومع أنه كان يخجل في طفولته
من حجمهما ومن شكلهما المنحني ، إلا أنه تعلم تقبلهما . وقد وصل به
الأمر إلى الإحساس بالفخر بهما بعد أن صار يكرس ليلة كاملة كل أسبوع
للعناية بهما . ولأنه توصل فوق ذلك ، بقوة التجريب والإصرار ، إلى جعل
هاتين الزائدتين غير الموفقتين تساهمان مع حماسة الفم أو فعالية اللمس ،
في لياليه الغرامية . ولو كرثيا تحبهما أيضاً ، وتسرف في الابتسامات
المفتونة بهما . وقد اعتادت في فقرات الاختلاطات الزوجية أن تقبلهما ؛
«دومبوياي المحبين» .

«زهريتان متفتحتان ، جناحان حساسان ، مسمعان للموسيقى
والحوارات» ، استشعر دون ريغوبيرتو . وكان يتفحص بالعدسة المكبرة
الحواف الغضروفية لأذنه اليسرى . أجل ، لقد برزت مرة أخرى رؤوس

الشعيرات التي اقتلعها يوم الأربعاء الماضي . إنها ثلاث شعرات ، غير متناظرة ، مثل النقاط الثلاث التي تتشكل منها أضلاع مثلث متساوي الساقين . وتصور منفضة الريش السوداء التي ستتحول إليها تلك الشعيرات إذا ما تركها تنمو ، إذا ما امتنع عن إزالتها ، وداهمه إحساس عابر بالقرف . وبسرعة ، بالمهارة التي توفرها المثابرة على الممارسة ، أمسك تلك الرؤوس الشعرية بفكي الملقط وانتزعها واحدة بعد أخرى . الشدة المدغدة التي رافقت الانتزاع سببت له قشعريرة لذيذة . وخطر له عندئذ أن دونيا لوكريثيا ، بأسنانها البيضاء المنتظمة ، تحلج ، وهي مقرضة ، شعر عانته الأجعد . فوفر له هذا خاطر نصف انتصاب . فكبحه على الفور متخيلاً امرأة غزيرة الشعر أذناها راكدتان بأجمتي شعر متهدلتين وفي ظلالهما المرتعشة يوجد بنر يلفظ حبيبات عرق . وعندئذ تذكر أن أحد زملائه في مهنة التأمين كان قد روى له ، في تلك المرة ، لدى عودته من إجازة في منطقة الكاريبي ، أن الملكة دون منازع في أحد مواخير سانتو دومنغو هي خلاسية خشنة لها ما بين نهديها قنزعة شعر لا يمكن تصورها . حاول أن يتخيل لوكريثيا بمثل تلك الميزة - خصلة حريرية! - بين نهديها العاجيين فأحس بالرعب . واعترف لنفسه : «إنني ممثلي بالأحكام المسبقة الجاهزة في القضايا الغرامية» . ولكنه غير مستعد في الوقت الراهن للتخلي عن أي من تلك الأحكام . فالشعر أمر جيد ، وهو من التوابل الجنسية القوية ، شريطة أن يكون في أماكن معينة . على الرأس وفي قمة فينوس ، جيد التسريح ودون إفراط ؛ ويمكن التسامح به تحت الإبط مرة ، من أجل التجريب ومعرفة كل شيء (وهذا هاجس أوربي كما يبدو) أما على الذراعين والساقين فلا وألف لا ؛ وبين النهدين ، مطلقاً وأبداً!

«هذه الليلة لن أفعل شيئاً سوى سماع الحب» ، قرر . وكان هذا

ممكناً ، فقد توصل إليه في مرات أخرى وقد أمتع ذلك لوكريشيا أيضاً ، على الأقل كمقدمة . «دعيني أسمع نهديك» ، سيهمس ، وسيريح بحبر فتحة أذنه شديدة الحساسية على حلمتي نهدي زوجته ، واحدة بعد الأخرى - فتنطبق فتحة الأذن على الحلمة مثلما تنطبق قدم في حذاء - وسيسمعهما بعينين مغمضتين ، بتوقير وذهول ، بتركيز مثلما في رفع خبز القربان ، إلى أن يسمع في سطح الحبيبات الخشنة لكل حلمة ، الصعود ، من الأعماق اللحمية ، لبعض الإيقاعات المختنقة ، ربما هي أنفاس مساماتها التي تتفتح ، وربما هو فوران دمها المندفع من التهيج .

كان ينتزع الزوائد الشعرية في أذنه اليمنى . وحدد فجأة وجود وافد غريب : فالشعرة الصغيرة الوحيدة كانت تتأرجح ، بصورة مشينة ، في منتصف شحمة الأذن . انتزعها بشدة خفيفة ، وقبل أن يلقي بها إلى المغسلة ليدفعها ماء الصنبور إلى المصرف ، تفحصها باشمزاز . هل سيتواصل ظهور شعيرات جديدة في السنوات القادمة ، في أذنيه الكبيرتين ؟ ولكنه لن يتنازل أمامها على كل حال ، حتى وهو على فراش الموت ، إذا توفرت له القوة ، سيواصل تدميرها (أليس من الأصح القول تشذيبها ؟) . ولكن فيما بعد ، عندما سيرقد جسده دون حياة ، سيتمكن هذا الشعر الدخيل من الظهور على هواه ، وسينمو ويُقَبَّح جثته . وسيحدث الشيء نفسه بأظفاره . وقال دون ريغوبيرتو لنفسه إن هذا المنظور هو حجة لا تدحض لصالح إحراق وترميد جثته . أجل ، فالنار تمنع حدوث تشوهات ما بعد الموت . اللهيبي سيؤدي إلى إخفائه كاملاً ، وسيحبط بذلك الديدان . وأحس بالراحة لهذا الخاطر .

وبينما هو يلف كرات صغيرة من القطن على رأس دبوس شعر ويبللها بالماء والصابون لينظف الشمع المتراكم داخل الأذن ، استبق ما سيسمعه

هذان القمعان النظيفان عما قريب ، نازلاً من نهدي زوجته إلى سرتها .
وهناك لن يكون مضطراً لإجهاد نفسه من أجل مفاجأة موسيقى لوكريشيا
السرية ، إذ أن سيمفونية حقيقية من أصوات سائلة وصلبة ، طويلة وقصيرة ،
مشوشة وصافية ، ستهرع لتكشف له حياتها الدفينة . واستيق بامتنان
الانفعال الذي سيشعر به من خلال جهاز السمع هذا الذي يمسحه الآن بود
مسهب ، مخلصاً إياه من القشرة الدهنية التي تتشكل فيه كل فترة معينة ،
شيء من الوجود السري لجسدها : غدد ، عضلات ، أوعية دموية ،
حوصلات ، أغشية ، أنسجة ، فتائل ، أنابيب ، أقنية ، كل هذه الأجهزة
البيولوجية الغنية والرقيقة الكامنة تحت بشرة بطن لوكريشيا المشدودة .
وفكر : « أحب كل ما هو موجود داخلها وخارجها . لأن كل ما فيها يمكن
أن يكون مهبجاً » .

لم يكن يبالغ منقاداً للرقعة التي يدفعها إلى الظهور دوماً في تخيلاته .
لا ، لم يكن يبالغ أبداً . فبفضل إصراره المباشر ، توصل إلى حب امرأته
كاملة وكل جزء منها على حدة ، حب لتفاصيل ولمجموع مركبات هذا الكون
الخليوي . وهو يعرف بأنه قادر على الاستجابة الايروتيرية ، بانتصاب مفاجئ
وقوي ، لتحريض أي جزء تافه منها ، بما في ذلك أشد الأجزاء تفاهة فيها ،
بما في ذلك - بالنسبة للإنسان العادي - الأجزاء التي لا يمكن تصورها
وأكثرها إثارة للنفور . « هنا يرقد دون ريغويرتو الذي أحب بطن زوجته
مثلاً أحب فرجها أو لسانها » ، فلسف الأمر مفكراً بأن هذه العبارة ستكون
مناسبة للوحة الرخامية التي ستوضع على قبره . وهل ستكذب تلك الإشارة
المأتمية ؟ في أدنى الحدود . وفكر كيف سيأخذ بالتأجج عما قريب
بالتقلبات المائية التي ستفاجئ مسمعيه عندما يطبقان بجشع على معدتها
الطرية ، وها هو ذا يسمع الآن الفوران السعيد للغازات المعوية ، أو الضرطة

المرحة المفرقة ، أو الغرغرة والتناؤب المهبلي أو التمطي الفاتر لأفعى أمعائها . وها هو ذا يسمع ، وقد أعماه الحب والشهوة ، العبارات التي اعتاد أن يكرم بها زوجته بينما هو يداعبها . « هذه الأصوات هي أنت أيضاً يا لوكريشيا ؛ إنها موسيقاك... الكونشيرتو الخاص بك... شخصك الرنان . » كان واثقاً من أنه قادر على التعرف على تلك الأصوات فوراً ، وعلى تمييزها عن الأصوات التي يصدرها بطن أي امرأة أخرى . وهذه فرضية ليست هناك أي فرصة لإثباتها ، لأنه لن يحاول أن يجرب أبداً سماع الحب مع امرأة أخرى . ولماذا يفعل ذلك ؟ أليست لوكريشيا أقيانوساً بلا قرار لن يتمكن ، هو الغواص العاشق ، من استكشاف كل أغواره أبداً ودمدم : « أحبك » ، وهو يشعر بفجر انتصاب جديد . أراد تفاديه بضربة على الرأس ، أثارت فيه - فضلاً عن مضاعفته إلى اثنين - نوبة من الضحك . وسمع امرأته توشوشه من غرفة النوم : « من يضحك وحيداً ، يتذكر آثامه ! » آه ، لو أن لوكريشيا تعرف ما يُضحكه .

سماع صوتها ، التأكد من قربها ووجودها ، ملأه بالسعادة . « السعادة موجودة » ، كرر ذلك ، مثلما يفعل كل ليلة . أجل ، ولكن بشرط البحث عنها حيث تكون ممكنة . في جسد المرء وفي جسد محبوبته مثلاً ؛ أو على انفراد في الحمام ؛ لساعات أو لدقائق على سرير يتقاسمه مع الشخص المنشود . لأن السعادة عابرة ، وفردية ، وثنائية بصورة استثنائية ، ونادراً ما تكون ثلاثية ، ولا يمكن مطلقاً أن تكون جماعية... بلدية . إنها مختفية - لؤلؤة في صدفتها البحرية - في بعض الطقوس والممارسات الاحتفالية التي تقدم إلى الإنسان ومضات وسراباً من الكمال . ولا بد من الرضا بهذا الفتات لكي يعيش المرء متلهفاً ويائساً ، محاولاً نيل ما هو مستحيل . وفكر بالمعية : « السعادة تختبئ بين فتحتي أذني » .

كان قد انتهى من تنظيف مجريي أذنيه ، وها هي ذي أمام عينيه كرات القطن المتضمخة بالمادة الدهنية الصفراء التي أخرجها منهما للتو . ما زال عليه أن يجففهما ، حتى لا تتبلور على قطرات الماء تلك بعض الوساخة قبل أن تتبخر . وقتل مرة أخرى كرتين من القطن على رأس دبوس الشعر وفرك مجاري أذنيه بنعومة وكأنه يدلّكهما أو يداعبهما . ثم ألقى بكرات القطن إلى المرحاض وشد السلسلة ليتدفق الماء . نظف دبوس الشعر ووضعه في علبة أدوات تجميل امرأته .

نظر إلى أذنيه في المرآة من أجل تفحص أخير . وأحس بالرضا والحماسة . فها هما هذان المخروطان الغضروفيان نظيفان من الخارج والداخل ، ومستعدان للانحناء من أجل الاستماع إلى جسد المحبوبة بتوقير وشبق .

« ٤ »

عینان مثل حشرتین مضیئتین

« بلوغ الأربعين ليس بالأمر المرعب إذن » ، هكذا فكرت دونيا لوكريشيا وهي تتمطى في الغرفة المظلمة . كانت تشعر بأنها شابة وجميلة وسعيدة . السعادة موجودة إذن ؟ ريغوبيرتو يقول نعم ، « للحظات ولنا نحن الاثنين » . إنها ليست كلمة جوفاء ، وحالة لا يبلغها إلا المجانين ؟ زوجها يحبها ، وهو يثبت ذلك يومياً في ألف من التفاصيل الدقيقة ، وكل ليلة تقريباً يطلب أفضالها بحمية شبابية . وهو أيضاً يبدو وكأنه قد استعاد شبابه منذ أن قررا ، قبل أربعة أشهر ، أن يتزوجا . المخاوف التي منعتها طويلاً من الإقدام على ذلك كانت قد تبخرت - فزواجهما الأول كان كارثة وكان الطلاق احتضاراً كابوسياً بين حقوقيين جهلة وشرهين - . أول ما فعلته هو تغيير ديكور كل الغرف حتى لا يبقى أي شيء يذكّر بزوجة ريغوبيرتو المتوفاة ، وهي الآن تحكم هذا البيت بطلاقة ، وكأنها سيدته منذ الأزل . الطاهية السابقة وحدها هي التي أبدت لها بعض العداء وكان عليها أن تستبدلها . أما بقية الخدم فعلاقتهم بها جيدة . وخصوصاً خوستينيانا التي رفعتها دونيا لوكريشيا إلى مرتبة وصيفة ، وتكشفت عن لقية ، فهي تتمتع بالكفاءة ، والفطنة ، والنظافة والولاء الكامل .

ولكن نجاحها الأكبر يتمثل في علاقتها بالطفل . فهذا الأمر هو أكثر ما كان يؤرقها ، من قبل ، وكانت تظنه عائقاً لا يمكن تجاوزه . فعندما كان ريغوبيرتو يلح عليها بوجوب وضع حد نهائي لفرامياتهما شبه السرية والزواج ، كانت هي تفكر : « هناك ابن زوج يا لوكريشيا . لن يتحقق الزواج أبداً . فالطفل سيكرهك دوماً ، وسيجعل حياتك مستحيلة ، وسينتهي بك الأمر عاجلاً أو آجلاً إلى كراهيته أيضاً . ومتى أمكن لزوجين أن يسعدا بوجود ابن امرأة أخرى ؟ » .

لم يتحقق أي شيء من هذه المخاوف . فالفونسييتو يعبدها . أجل ، هذا هو الفعل الدقيق : إنه يعبدها . وربما أكثر من اللازم . وتمطت دونيا لوكريشيا من جديد تحت الملاءات الدافئة ، متمددة ومتقلصة مثل حية متكاسلة . ألم يحرز المرتبة الأولى في المدرسة من أجلها ؟ وتذكرت وجهه المتورد ، والانتصار في عينيه السماويتين عندما قدم لها سجل علاماته :
- ها هي هدية عيد ميلادك يا خالتي . هل يمكنني أن آخذ قبلة ؟
- طبعاً يا فونتشييتو . يمكنك أن تقبلني عشر قبلات .

كان يطلب منها القبلات وتمنحه إياها في كل وقت ، بحماس يجعلها ترتاب أحياناً . هل صحيح أن الطفل يحبها إلى هذا الحد ؟ أجل ، فقد كسبته إلى جانبها بكل تلك الهدايا وذلك التدليل منذ أن وضعت قدميها في هذا البيت . أم أن الأمر مثلما كان يتخيل ريغوبيرتو مؤججاً الرغبة من اندفاعاته الليلية بالقول إن الفونسييتو قد بدأ يتفتح على الحياة الجنسية وإن الظروف قد أوكلت إليها دور الملهمة ؟ « يا للهراء يا ريغوبيرتو . إنه ما يزال صغيراً ، فقد أنجز للتو مناولته الأولى . يا للسخافات التي تخطر لك . » .

ولكن ، على الرغم من أنها لم تكن توافق بصوت عالٍ على مثل تلك الأمور ، وخصوصاً أمام زوجها ، حين يكونان وحدهما ، مثلما هما الآن ، إلا

أن دونيا لوكريشيا كانت تتساءل عما إذا كان الطفل يكتشف فعلاً الشهوة ، هذا الشعر المتولد من الجسد ، مستفيداً منها كمعرض . فسلوك ألفونسيتو يشوشها ، فهو يبدو بريئاً جداً وغامضاً جداً في الوقت نفسه . وتذكرت عندئذ - وكانت تلك حادثة من طفولتها لا يمكن نسيانها مطلقاً - ذلك الرسم العارض الذي رأت قائمتا نورس تخطانه يومذاك على رمال نادي ريفاتاس ؛ فاقتربت لتتأمله ، منتظرة أن ترى شكلاً تجريدياً ، متاهة من الخطوط المستقيمة والمنحنية ، ولكن ما رآته كان أشبه بعضو ذكرى أحدها ! هل كان فوتتشييتو يعي أنه حين يلقي بذراعيه حول عنقها مثلما يفعل ، ويقبلها بتلك الطريقة المتمهلة ، باحثاً عن شفيتها ، يتجاوز الحدود المسموح بها ؟ من المستحيل معرفة ذلك . فنظرة الطفل كانت شديدة الصراحة ، شديدة العذوبة ، بحيث بدا من المستحيل لدونيا لوكريشيا أنه يمكن لذلك الرأس الأشقر الجميل الذي يتخذ وضعية راع صغير في مذود الميلاد في مدرسة سانتا ماريا أن يتضمن أفكاراً دنسة ، وعرة .

« أفكار دنسة » همست وفمها على الوسادة ، « وعرة . ها ها ها ! » كانت تحس بأنها رائقة المزاج وأن دفناً لذيذاً يسري في أوردتها ، كما لو أن ذلك هو لعب بالنار ، فتدفق العواطف ذاك تمليه دون شك غريزة غامضة ، انتحاء لا شعوري . ولكنه حتى في هذه الحالة يبقى العاباً خطرة . أليس كذلك يا لوكريشيا ؟ لأنها عندما تراه ، صغيراً ، جاثياً على الأرض ، يتأملها وكأن خالته قد هبطت لتوها من الجنة ، أو عندما تلتحم ذراعاها الصغيرتان وجسده الغض بها وتلتصق شفاته اللتان لا تكادان تظهران لشدة نحولهما بخديها وتلمسان شفيتها - وهي لم تسمح أبداً ببقائهما لأكثر من ثانية واحدة - ، لا تستطيع دونيا لوكريشيا أن تحول دون أن تباغتها أحياناً ضربة تهيج ، نفحة شهوة . « أنت من تملك أفكاراً دنسة ووعرة يا لوكريشيا » ،

دمدمت بذلك وهي تلتصق بشدة بالوسادة ، دون أن تفتح عينيها . أتراها تتحول يوماً إلى عجوز ماجنة مثل بعض زميلاتنا في لعبة البريدج ؟ أكون هذا هو شيطان الظهيرة ؟ اهدئي ، تذكرى أنك ستكونين أرملة ليومين - فقد سافر ريغوبيرتو في رحلة عمل ، من أجل شؤون تتعلق بالتأمين ، ولن يرجع حتى يوم الأحد - ثم ، يكفي تكاسلاً في الفراش . إلى النهوض أيتها الكسول! بذلت جهداً لتنفض عنها الوسن اللذيذ ، تناولت الائتروفون وأمرت خوستينيانا بأن تأتيها بالفطور .

دخلت الفتاة بعد خمس دقائق حاملة الصينية ، والرسائل والصحف . فتحت الستائر فداهم الحجرة ضوءاً أيلول ليما الرطب ، الكثيب ، الرمادي . وفكرت دونيا لوكريثيا : « كم هو قبيح الشتاء » . وحلمت بشمس الصيف ، بشواطئ باراكاس الرملية الساخنة وبمداعبة البحر المالحة على بشرتها . مازال هناك وقت طويل! وضعت لها خوستينيانا الصينية فوق ركبتها ورتبت لها الوسائد لتسند ظهرها إليها . لقد كانت سمراء ممشوقة القامة ، لها شعر أجعد ، وعينان لعوبان وصوت مترنم .

- هناك شيء لا أعرف إذا ما كان علي أن أخبرك به يا سيدتي - تمتت وهي تومئ بحركة تراجيكوميديّة ، بينما هي تقدم لها الروب وتضع الخف بجانب السرير .

فردت دونيا لوكريثيا وهي تقضم الخبز المحمص وتتناول رشفة من الشاي :

- عليك الآن أن تخبريني بما لديك ، لأنك فتحت شهيتي . ما الذي جرى ؟

- إنني أخجل من قول ذلك يا سيدتي .

تأملتها دونيا لوكريثيا مستمتعة . إنها شابة ، تكشف تكورات

جسدها تحت مريلة زيتها الزرقاء عن طزاجة ومرونة . كيف يبدو وجهها عندما يمارس زوجها الحب معها ؟ لقد كانت متزوجة من بواب في أحد المطاعم ، زنجي طويل ومربوع القامة مثل رياضي يأتي ليوصلها صباح كل يوم . وكانت دونيا لوكريثيا قد نصحتها ألا تُعقد حياتها بإنجاب الأطفال وهي ما تزال شابة وأخذتها بنفسها إلى طبيبها ليصف لها حبوب منع الحمل .

- أهو شجار آخر بين الطاهية وساتورنينو ؟

- بل هو أمر متعلق بالطفل الفونسو - قالت خوستينيانا ذلك بصوت خافت وكأنه يمكن للصغير أن يسمعها وهو في مدرسته البعيدة ، وحاولت أن تبدو مضطربة أكثر مما هي عليه عندما أضافت : - لقد ضبطته ليلاً... ولكن ، أرجوك ألا تخبريه يا سيدتي . لأن فونتشييتو سيقتلني إذا عرف بأنني أخبرتك .

كانت دونيا لوكريثيا تتسلى بهذا التكلف وهذه المبالغة التي تزين بها خوستينيانا كل ما تقوله

- أين ضبطته ؟ وأي شيء كان يفعل ؟

- كان يتلصص عليك يا سيدتي .

ونبه إحساس غريزي دونيا لوكريثيا إلى ما ستسمعه ، فتأهبت . كانت خوستينيانا تشير إلى سقف الحمام ، وقد بدت مضطربة الآن حقاً .

- كان يمكن له أن يسقط إلى الحديقة ويقتل نفسه - همست وهي تحرك عينيها في محجريهما - . ولهذا رأيت أن أخبرك يا سيدتي . عندما أنبته قال لي إنها ليست المرة الأولى . وإنه قد صعد إلى السقف عدة مرات ليتلصص عليك

- ما هذا الكلام ؟

- ما سمعته - رد الطفل بتحد ، وبما يشبه البطولة - . واعلمي أنني سأواصل عمل ذلك حتى لو انزلت وقتلت نفسي .

- ولكنك جننت يا فونتشيتو . هذا سلوك قبيح جداً ، هذا عمل معيب . ما الذي سيقوله دون ريغوييرتو إذا علم أنك تتجسس على خالتك وهي تستحم . سيفضب كثيراً ، ويضربك . ثم إنك قد تقتل نفسك ، انظر كم هو مرتفع .

- لا يهمني - رد عليها الطفل بوميض حاسم في عينيه . ولكن ذلك الوميض انطفاً في الحال ، وهز الطفل كتفيه ، وأضاف بتذلل شديد : - حتى لو ضربني أبي يا خوستيتا . هل ستشين بي إذن ؟
- لن أخبره بأي شيء إذا ما عاهدتني ألا تصعد إلى هناك أبداً .
فهتف الطفل محزوناً :

- لا يمكنني أن أعاهدك بشيء من هذا . فأنا لا أعد بما لا يمكنني تنفيذه .

- ألسـتِ تخترعين كل هذه القصة بمخيلتك الترويكالية ؟ - قالت لها دونيا لوكريشيا متلعثمة وهي تفكر : هل يجب عليها أن تضحك أم تفضب ؟

- لقد ترددت كثيراً قبل أن أحسم أمري وأخبرك يا سيدتي . لأن فونتشيتو طيب جداً ، وأنا أحبه كثيراً . ولكن يمكن له أن يقتل نفسه بالصعود إلى هذا السطح ، أقسم لك .

حاولت دونيا لوكريشيا دون جدوى أن تتخيله هناك في الأعلى ، قابلاً يترصدها مثل وحش .

- ولكن ، ولكن... لا أستطيع أن أصدق ذلك . فهو جدي ومؤدب جداً . لا أستطيع تصوره يفعل مثل هذه الفعلة .

فتنهدت الفتاة وهي تغطي فمها وتبتسم :
- لقد أحبك فونتشيتو يا سيدتي . ولا تقولي إنك لم تلاحظي ذلك ،
فأنا لن أصدق .

- يا للبشاعات التي تتلفظين بها يا خوستينيا .
- وهل هناك سن محددة للحب يا سيدتي ؟ البعض يبدؤون الحب وهم
في عمر فونتشيتو . وهو فوق ذلك شديد اليقظة . لو أنك سمعت ما قاله لي
لبقيت مفتوحة الفم من الدهشة . مثلما أصابني أنا .
- وما الذي ستخترعينه الآن أيتها السمجة .

- ما سمعته يا خوستيتا . فعندما تخلع الروب وتغطس في الحوض
المملوء بالرغوة ، لا أستطيع أن أصف لك ما أشعر به . إنها جميلة ، جميلة...
فدموعي تطفر من عيني ، مثلما يصيبني عندما أشارك في تناول خبز
القربان . أقول لك إنني أحس وكأنني أشاهد فيلماً . يبدو لي شيئاً لا أستطيع
وصفه لك . وربما هذا هو ما يجعلني أبكي ، أليس كذلك ؟
اختارت دونيا لوكريثيا أن تنفجر بالضحك . فأحست الخادمة بالثقة
وابتسمت أيضاً مظهرة ملامح التواطؤ .

- لا أصدق إلا عشر ما ترويئه لي - قالت لها أخيراً وهي تنهض - .
ولكن ، حتى في هذه الحالة ، لا بد من عمل شيء لهذا الطفل . يجب وقف
هذه الألعاب بالحسنى وبأسرع ما يمكن .

فتوسلت إليها خوستينيا مذعورة :
- لا تخبري السيد . فقد يفضب كثيراً وربما ضربك . ففونتشيتو لا
يدرك بأنه يقوم بعمل سيئ . صدقيني أنه لا يدرك . إنه مثل ملاك صغير ،
لا يميز بين الجيد والخبيث .

فوافقت دونيا لوكريثيا مفكرة بصوت عالٍ :

- لن أخبر ريغوبيرتو... لن أفعل ذلك بالطبع . ولكن لا بد من وضع حد لهذه الحماسة . لست أدري كيف ، ولكن يجب عمل ذلك فوراً .

كانت تشعر بالخوف وعدم الراحة وبالغضب من الطفل ، ومن الخادمة ، ومن نفسها . ما الذي عليها عمله ؟ أتكلم فونتتشيتو وتؤنبه ؟ أتهدهه بأنها ستخبر ريغوبيرتو بكل شيء ؟ وماذا سيكون رد فعله ؟ هل سيشعر بأنه قد جُرح وتعرض للخيانة ؟ وهل سيتحول فجأة حبه لها إلى كراهية ؟

بينما هي تفرك جسمها بالصابون ، داعبت نهديها الصلبين الكبيرين بحلمتيهما المنتصبتين ، وخصرها الذي ما زال نحيلاً تبرز منه ، مثل نصفي ثمرة ، انحناءات الوركين ، والفخذين ، والإليتين ، والإبطيين منزوعي الشعر والعنق الطويل البض المزين بشامة وحيدة . ورتلت مثلما تفعل وهي تستحم كل صباح : « لن أهرم أبداً . حتى لو اضطررت إلى أن أبيع روحي أو أي شيء آخر . لن أكون قبيحة أو تعيسة أبداً . سأموت جميلة وسعيدة . » كان دون ريغوبيرتو قد أقنعها بأن قول هذه العبارات وتكرارها والإيمان بها يحولها إلى حقيقة . « يا للسحر اللطيف يا حبي . » وابتسمت لوكريثيا . فقد يكون زوجها غريب الأطوار جداً ، ولكن المرأة لا تشعر في الحقيقة بالملل مع رجل مثله .

طوال ذلك النهار ، وبينما هي تصدر التعليمات للخدم ، وتذهب لشراء لوازم البيت ، وتزور إحدى صديقاتها ، وتتناول الغداء ، وتجري وتتلقى اتصالات هاتفية ، كانت تتساءل عما ستفعله مع الطفل . إذا ما وشت به إلى ريغوبيرتو ، فسوف تحوله إلى عدو لها ، وعندئذ ستتحول نبوءة الجحيم المنزلي القديمة إلى واقع . ربما كان أكثر التصرفات رصانة هو نسيان ما كشفت عنه خوستينيانا ، وتبني سلوك مختلف ، والبدء بسحب الأرض تدريجياً من تحت هذه التخيلات التي صاغها الطفل معها ، والتي لا يعي

فحواها إلا بصورة تقريبية . أجل ، هذا التصرف هو عين العقل : التزام الصمت ، وإبعاده عنها شيئاً فشيئاً .

عندما دنا منها ألقونسييتو في المساء ، لدى عودته من المدرسة ، ليقبلها ، أبعدت خدها عنه بسرعة واستغرقت في المجلة التي كانت تتصفحها دون أن تسأله عن دروسه أو إذا ما كانت لديه واجبات مدرسية للغد . ولمحت بطرف عينها أن وجهه الصغير يتأثر إلى حد التحول إلى تكشيرة بكاء . ولكنها لم تتأثر وتركته يتناول طعامه في تلك الليلة وحيداً دون أن تنزل لمرافقته مثلما تفعل في مرات أخرى (وكانت هي لا تتناول وجبة العشاء إلا نادراً) . وبعد قليل من ذلك اتصل بها ريغويرتو من مدينة تروخييو . كل أعماله في مهمته كانت على ما يرام وهو مشتاق إليها جداً . وهذه الليلة سيشتاق إليها أكثر في غرفته الكئيبة في فندق السياح . أليس هناك من جديد في البيت ؟ لا ، لا شيء . انتبهي لنفسك جيداً يا حبي . وبعد ذلك استمعت دونيا لوكريشيا إلى قليل من الموسيقى ، وحيدة في غرفتها ، وعندما جاء الطفل ليتمنى لها ليلة سعيدة ، ردت عليه ببرود . وبعد قليل طلبت من خوستينيانا أن تعد لها حمام الرغبة الذي تستحم فيه دوماً قبل النوم .

وبينما كانت الفتاة تملأ حوض الحمام بالماء ، وكانت هي تتعري ، عاودها مجدداً الضيق الذي لاحقها طوال النهار ، وكان قد ازداد أكثر . هل أحسنت صنعاً بمعاملتها فوتتشيتو بهذه الطريقة ؟ وكانت على الرغم منها ، تشعر بالأسى وهي تتذكر ملامح وجهه المخذول والمباغت . ولكن ، ألم تكن هذه هي الطريقة الوحيدة لوضع حد لولدنة يمكن لها أن تصبح خطرة ؟ كانت شبه غافية في حوض الحمام ، وكان الماء يصل حتى عنقها ، وهي تحرك بين الفينة والفينة بيدها أو بقدمها فقاعات الصابون ، عندما

طرقت خوستينيانا الباب : أيمكنني الدخول يا سيدتي ؟ رأتها تقترب حاملة المنشفة في يد وروب الحمام في اليد الأخرى . وكانت تبدو على وجهها إشارات ذعر شديد . فعرفت على الفور ما الذي ستهمس لها به الفتاة : « فونتشيتو موجود في الأعلى يا سيدتي » . فأومات بحركة مثقلة وأمرت خوستينيانا بالخروج .

بقيت في الماء دون حراك لوقت طويل ، متجنباً النظر إلى السقف . هل يتوجب عليها عمل ذلك ؟ هل تشير إليه بإصبعها ؟ أتصرخ ، أتشتمه ؟ استبقت الجلبة التي قد تحدث وراء القبة الزجاجية القاتمة الموجودة فوق رأسها : تخيلت الهيئة الصغيرة المقرفصة ، ورعبه ، وخجله . سمعت صرخته المشوشة ، رآته يندفع راكضاً . ينزلق ، يسقط إلى الحديقة بدوي نيزك . ووصلت إلى مسمعيها ضجة ارتطام الجسد الصغير القوية بالدرابزين ، وسحقه سياج شجيرات الكروتو ، وتشابكه ما بين أغصان شجرة الفلوريونديو . قالت لنفسها وهي تضغط على أسنانها : « ابذلي جهدك ، واكبحي نفسك . تجنبني حدوث فضيحة . وتجنبني قبل كل شيء حدوث أمر قد ينتهي بمأساة » .

لقد جعلها الغضب ترتجف من قدميها حتى رأسها ، وكانت أسنانها تصطك وكأنها تشعر ببرد شديد . نهضت فجأة . ودون أن تستر جسدها بالمنشفة ، ودون أن تنكمش على نفسها بحيث لا ترى العينان الصغيرتان غير المرئيتين سوى مشهد ناقص وعابر لجسدها . لا ، بل على العكس . نهضت منتصبه ، منفتحة ، وقبل أن تخرج من حوض الاستحمام ، تمطت مظهرة نفسها بتمهل وفحش بينما هي تنزع واقية الشعر البلاستيكية وتهز شعرها بقوة . وحين خرجت من الحوض ، وبدلاً من أن ترتدي الروب فوراً ، بقيت عارية ، جسدها يتلألأ بقطرات الماء ، مشدوداً ، جريئاً ، غاضباً .

جففت جسمها ببطء شديد ، عضواً فعضواً ، مارة بالمنشفة على بشرتها مرة بعد أخرى ، منتصبه ، منحنية ، متوقفة للحظات وكأنها ساهية بفكرة مفاجئة في وضع فاحش مستسلم أو متأمله نفسها بتمعن في المرأة . وبالإسهاب المهووس نفسه دلكت جسدها بعد ذلك بمراهم منعشة . وبينما هي تتألق بهذه الطريقة أمام المراقب غير المرئي ، كان قلبها ينبض بالغضب . ما الذي تفعلينه يا لوكريشيا ؟ أي تغنج هذا يا لوكريشيا ؟ ولكنها واصلت عرض نفسها مثلما لم تفعل ذلك لأحد من قبل ، حتى ولا لدون ريفوبيرتو نفسه ، متنقلة من مكان إلى آخر في الحمام ، عارية ، بينما هي تسرح شعرها بالفرشاة ، وتنظف أسنانها ، وترش جسدها ببخاخ العطر . وبينما هي تقوم ببطولة هذا الاستعراض المرتجل كانت تحس بأن ما تفعله هو طريقة فطنة أيضاً للتنكيل بالماجن المبكر القابع في ظلمة السطح ، وأن الصور الحميمة ستمزق إلى الأبد كل تلك البراءة التي تستر وقاحاته .

عندما دست نفسها في السرير ، كانت ما تزال ترتجف . ولم تستطع النوم لوقت طويل ، متشوقة لريفوبيرتو . كانت تشعر بالاستياء مما فعلته ، وكرهت الطفل بكل قواها ، وكانت تحاول جاهدة ألا تحزر ما الذي تعنيه نوبات السخونة تلك التي تكهرب حلمتي نهديتها بين فينة وأخرى . ما الذي أصابك يا امرأة ؟ لم تكن تعرف . أهى سن الأربعين ؟ أم أنه أثر تخيلات وشذوذات زوجها الليلية ؟ لا ، فالذنب كله يقع على ألفونسيتو . وفكرت بتشوش : « هذا الطفل يفسدني » .

وعندما استطاعت النوم أخيراً ، حلمت حلماً شهوانياً يبدو وكأنه يبعث الحياة في إحدى لوحات مجموعة دون ريفوبيرتو السرية التي يتأملانها معاً في الليل بحثاً عن مصدر إلهام لحيتهما .

« ۵ »

ديانا بعد حمامها^(۱)

هذه التي إلى اليسار هي أنا ، ديانا لوكرثيا . أجل ، أنا ربة السنديان والغابات ، ربة الخصوبة والإنجاب ، ربة الصيد . الإغريق كانوا يسمونني ارتيميسا . وأنا متساوية مع القمر ، وأبولو هو أخي . وبين من يعبدونني تكثر النساء والعوام . هناك معابد منتشرة لتأليهي في كل غابات الإمبراطورية . والمنحنية إلى جانبي ، تنظر إلى قدمي ، هي خوستينيا ، المفضلة لدي . لقد انتهينا من الاستحمام للتو وسوف نمارس الحب .

الأرانب البرية والزرراير وطيور التدرج اصطدتها فجر هذا اليوم ، بالسهام التي أعيدت إلى كنانتها بعد أن انتزعتها خوستينيا من أجساد الطرائد ونظفتها . كلاب الصيد هي للزينة فقط ؛ فنادرأ ما أستخدمها لدى خروجي إلى الصيد . ولم أستخدمها مطلقاً على أي حال من أجل طرائد حساسة كهذه التي اصطدتها اليوم ، لأن أنيابها تتلفها فلا تعود صالحة للأكل . هذه الليلة سنأكل هذه الحيوانات ذات اللحم الطري واللذيذ ، متبلاً ببهارات غريبة وسنشرب من نبيذ كابوا إلى أن نخر منهوكتين . أنا أعرف

(١) راجع اللوحة رقم (٢) .

كيف استمتع . وهذه كفاءة رحت أطورها دون راحة على امتداد الزمن والتاريخ ، وأؤكد دون تفاخر بأنني قد توصلت في هذا المجال إلى الحكمة . أعني : فن مزج نيكتر لذة كل الثمار - حتى المتعفنة منها - في الحياة . الشخصية الرئيسية ليس موجوداً في اللوحة . أو أنه بكلمة أدق ، لا يظهر فيها . إنه في الخلفية ، متخفي في الدغل ، يتلصص علينا . إنه هناك ، بعينه الجميلتين اللتين بلون الفجر الجنوبي المفتوحتين على اتساعهما ووجهه المدور الساخن باللهفة ، إنه هناك ، يجثو في غيبوبة ليعبدني . بخصل شعره الأشقر المتشابك مع الغصون الكثيفة وعضوه الصغير ذي البشرة الشاحبة المنتصب مثل بيرق ، يرتشفنا ويلتھمنا بمخيلته... مخيلة الطفل النقي ، إنه هناك . ومعرفتنا بوجوده تفرحنا وتضفي مزيداً من الخبث على ألعابنا . إنه ليس إلهاً ولا حيواناً ، بل هو من جنس البشر . يرقى الماعز ويعزف المزمارة . واسمه فونشين .

لقد اكتشفته خوستينيانا في يوم عيدس آب ، حين كنتُ أقتفي أثر غزال في الغابة . وكان الراعي الصغير يتبعني مبهوراً ، متعثراً ، دون أن يرفع عينيه عني لحظة واحدة . وتقول مفضلتي إنه حين رأني منتصباً - وكان شعاع من الشمس يشعل شعري ويهيج حدقتي عيني ، بينما كل عضلات جسدي مشدودة استعداداً لرمي السهم - انفجر الصغير بالبكاء . فاقتربت خوستينيانا منه لتواسيه ، وانتبهتُ عندئذ إلى أن الطفل يبكي من السعادة .

« لا أدري ما الذي أصابني » ، اعترف لها بذلك والدموع تسيل على خديه ، وأضاف : « ولكن كلما ظهرت السيدة في الغابة تتحول أوراق الشجر إلى نجوم ساطعة وتبدأ الأزهار بالغناء . فتتسل إلى داخلي روح ملتھبة تهيج دمائي . أراها فأحس وأنا ساكن على الأرض بأنني أتحوّل إلى طائر وأنطلق محلقاً .

وفلسفت خوستينيانا الأمر بعد أن روت لي الواقعة : «هيئة جسدك أوجت باكراً بلغة الحب لسنوات عمره القليلة . لقد فتنه جمالك مثلما تفتن ذات الأجراس عصفور الكوليبري . أشفقي عليه يا ديانا لو كريتيا . لماذا لا نلعب قليلاً مع الطفل الراعي ؟ ستمتعه ونمتع أنفسنا كذلك .

وهذا ما حدث . فخوستينيانا المحبة للهو بالفطرة ، مثلي ، وربما أكثر مني ، لا تخطئ أبداً في الشؤون المتعلقة باللذة . وهذا هو أكثر ما يعجبني فيها ، أكثر من وركيها الوارفين أو من زغب عانتها الحريري ذي الطعم اللذيذ في المداعبة ، إنها مخيلتها السريعة وغريزتها الصائبة في التعرف ، وسط صخب هذا العالم ، على منابع اللهو واللذة .

منذ ذلك الحين صرنا نلعب معه ، ومع أن وقتاً طويلاً قد انقضى ، إلا أن اللعب مُبْهَج لا يسبب لنا أي ملل . ففي كل يوم يسلينا أكثر من سابقه ، مضيفاً الجدة والطرافة على الحياة .

إن فونشين ، إضافة إلى مفاتنه الجسدية ، كباله رجولي صغير ، يجمع كذلك روح الخجل والحياء . فالمحاولتان أو الثلاث التي قمت بها للاقتراب منه والتحدث إليه لم تثمر نفعاً . فهو يمتنع ، وينطلق راكضاً مثل غزال نفور ويختفي بين الأغصان كما في أعمال السحر الأسود . لقد همس إلى خوستينيانا بأن مجرد التفكير ، ليس بلمسي ، وإنما بالاقتراب مني ، أو بأنني أنظر إلى عينيه أو أتحدث إليه يُفقدُه صوابه ويقضي عليه . وقال لها : « أعرف بأن جمالها سيحرقني إذا ما اقتربت منها مثلما تحرق شمس ليبية فراشة حائمة .

ولهذا السبب نمارس ألعابنا خفية . في كل مرة لعبة مختلفة ، ألعابُ تُصنَّع تشبه تلك المشاهد المسرحية التي يختلط فيها الآلهة والبشر ليتألموا ويتسلوا ، والتي يحبها كثيراً أبناء بلاد الإغريق العاطفيون . فخوستينيانا

تتظاهر بأنها شريكته المتواطنة معه وليست حليفتي - والحقيقة أن تلك الخبيثة متواطنة مع كلينا ، ومع نفسها بصورة خاصة - ، فتضع الراعي الصغير بين صخور مجاورة للمغارة التي أقضي فيها الليل . وعندئذ تعريني على ضوء الموقد ذي اللهب الأحمر ، وتطلي جسدي بعسل نحل صقلية العذب . إنها وصفة إسبارطية للحفاظ على الجسد صافياً ولامعاً ، فضلاً عن أنها وصفة مهيجة . وأغمض أنا عيني بينما هي قابضة فوقي ، تدلك أعضائي وتحركها وتعرضها على فضول مريدي العفيف . وأغور في أثناء ذلك في نفق الحس وأرتعش في تشنجات لذة قصيرة وأنا أتخيل فونشين . بل أكثر من ذلك ، فأنا أراه ، أشمه ، أداعبه ، أشده وأخبئه في داخلي ، دون أن أكون بحاجة إلى لمسه . ويضاعف تهيجي علمي بأنني بينما أنا أستمتع تحت يدي مفضلتي المجتهدتين ، يستمتع هو أيضاً معي ، على إيقاع متعتي . جسده الصغير البريء ، المتلألئ بالمرق وهو يتأملني وينتشي برويتي ، يضيف لمسة حنان تلون لذتي وتبعث فيها الحلاوة .

وهكذا رأي الراعي الصغير بمساعدة خوستينيانا وهو مختبئ ما بين تشابكات الغابة ، وأنا أنام وأستيقظ ، ورآني وأنا أرمي السهم والنبل ، وأنا ألبس وأتعري . رأي أقرص على حجرين لأتبول بولي الأشقر في جدول ماء رائق شفاف يسارع هو ، بعيداً عني في أسفل المجرى ، إلى الشرب منه . رأي أقطع رؤوس الإوز ، وأصفي دم الحمام لأقدمه للآلهة وأتقصي في أحشائها مجاهيل المستقبل . رأي أداعب جسدي وأنتشي بنفسي وأداعب مفضلتي وأبعث فيها النشوة ، ورآنا ، أنا وخوستينيانا ، نقطس معاً في النهر ، وتشرب كل واحدة منا ماء الشلال البلوري من فم الأخرى ، مستمتعتين بمذاق لعابينا ورحيقنا وعرقينا . ليس هناك ممارسة أو عمل ، ولا مجون أو طقس من طقوس الجسد أو الروح إلا وعرضناه عليه ، عليه هو

سيد الامتياز في الإطلاع على لقاءاتنا الحميمة من مخابئه المتنقلة . إنه
مهرجنا ، ولكنه سيدنا أيضاً . يخدمنا ونخدمه . ولقد استمتعنا مرات لا
حصر لها دون أن يلمس أحداً الآخر أو يتبادل معه كلمة واحدة ، وليس من
الظلم القول إنه على الرغم من الهوة الشاسعة التي تفصل بين طبيعتينا
وسنينا ، إلا أننا ، أنا وهو ، أشد اتحاداً من أي عاشقين متيمين .

الآن ، في هذه اللحظة بالذات ، سنمثل أنا وخوستينيانا من أجله ،
وسيبقى فونشين ببساطة هناك في الخلف ، ما بين السور الحجري والدغل ،
وسيمثل كذلك من أجلنا .

وباختصار ، سوف تدب الحياة والحركة في هذا السكون الأبدي ليصبح
زماناً وتاريخاً . ستنبح كلاب الصيد ، وستفرد الغابة ، وستجري مياه النهر
مغنية ما بين الحصى والقصب ، وستسافر الغيوم المنفوشة نحو الشرق ،
مدفوعة بالرياح اللعوب نفسها التي تهز تجعيدات شعر مفضلتي السعيدة .
إنها ستتحرك الآن ، ستحنني بفمها ذي الشفتين الورديتين لتقبل قدمي
وتمص كل إصبع من أصابعي مثلما تمص الليمون في أمسيات الصيف
الحارة . عما قريب سنتشابك معاً ، متداعبتين على حرير الشرشف الأزرق ،
غارقتين في النشوة التي تنبثق منها الحياة . وفيما حولنا ستحوم الكلاب
مطلقة الأبخرة من أشداقها المتلهفة ، وربما ستلحسنا متهيجة . والغابة
ستسمعنا نتنهد ، نغيب عن الوعي ، ثم نصرخ فجأة مجروحتين جراحاً
مميتة . وبعد لحظة من ذلك سيسمعنا نضحك ونمزح . وسيرانا نستغرق في
نوم هادئ دون أن تنفصل إحدانا عن الأخرى .

ومن المحتمل عندئذ ، حين يرانا وقد صرنا أسيرتي الإله هبنوس^(٢) ،

(٢) هبنوس Hibernos الإله الذي يجسد النوم عند الاغريق وهو شقيق ثاناتوس ، إله تشخيص الموت

سيتخذ أقصى الاحتياطات لكي لا يوقظنا بأدنى حفيف من خطواته ، وسيغادر شاهد تغننا مخبأه ويأتي ليتأملنا من حافة الشرشف الأزرق .

سيكون هناك ، وسنكون نحن أيضاً ، جامدين مرة أخرى ، في لحظة أبدية أخرى . وستكون جبهة فونشين شاحبة ، وخداه متوردين ، وعيناه مفتوحتين بذهول وامتنان ، وخيط لعاب رقيق يسيل من فمه الطري . أما نحن المتشابكتين والتامتين ، فسنتنفس بإيقاع واحد ، بأقصى تعبير من يعرفن كيف يكنّ سعيادات . سنكون هناك نحن الثلاثة ، ساكنين ، صابرين ، بانتظار فنان المستقبل الذي ستهيجه الشهوة ، فيحبسنا في حلمه ، ثم ينقلنا إلى لوحة القماش بريشته معتقداً أنه يبدعنا .

« ٦ »

اغتسالات دون ريغوبيرتو

دخل دون ريغوبيرتو إلى الحمام ، أحكم القفل وتنهد . وعلى الفور هيمن عليه إحساسٌ من الرضا والامتنان ، من الراحة والرجاء : ففي نصف ساعة التوحد هذه سيكون سعيداً . وقد كان يشعر بذلك كل ليلة ، بصورة أكبر أحياناً ، وأقل في أحيان أخرى ، ولكن الطقس الغيور الذي راح يتقنه على امتداد السنوات ، مثل فنان يهذب ويشذب عمله المتميز ، لم يتوقف عن بعث ذلك التأثير الاعجازي فيه : إراحته ، مصالحته مع أمثاله ، إعادة الشباب إليه ، وبعث الحماسة فيه . فكل مرة يخرج من الحمام وهو يشعر ، على الرغم من كل شيء ، بأن الحياة تستحق أن تعاش . ولهذا ، لم يتوقف عن الاحتفاء بذلك أبداً ، منذ أن - منذ كم من الآن ؟ - منذ أن خطر له أن يحول ما هو أمر عادي بالنسبة إلى غيره من الفنانين ، يمارسونه بروتينية آليه غير واعية - تنظيف الأسنان بالفرشاة ، المضمضة ، إلى آخره - يحوله إلى عمل مهذب متقن ، يجعل منه كائناً كاملاً ، وإن كان ذلك يستمر لفترة قصيرة عابرة فقط .

لقد كان في شبابه عضواً متحمساً في منظمة العمل الكاثوليكي وكان يحلم بتغيير العالم . وسرعان ما أدرك أن تحقيق ذلك هو حلم مستحيل

ومحكوم عليه بالإخفاق ، مثلما هي كل المثل العليا الجماعية . وقادته روحه العملية إلى عدم إضاعة الوقت في خوض معارك سيخسرها عاجلاً أو آجلاً . وحدث عندئذ أن فكرة الكمال قد تكون ممكنة التحقيق بالنسبة إلى الفرد المعزول ، بحصرها في مجال محدد في المكان (النظافة أو الطهارة الجسدية مثلاً ، أو الممارسة الايروتيكية) وفي الزمان (الاغتسالات والتسلية الليلية قبل النوم) .

خلع الروب وعلقه وراء الباب ، ومضى وهو عارٍ إلا من الخف في قدميه ، ليجلس على مقعد المرحاض الذي يفصله عن بقية الحمام برافان حاجز مطلي باللك ومزين بأشكال راقصة ذات لون سماوي . لقد كانت معدته ساعة سويسرية : منضبطة ودقيقة دوماً على الإفراغ الكامل ودون جهد في هذا الوقت بالضبط ، على التخلص السعيد من بوالص ومن معوقات اليوم . فهو لم يعد يعرف الإمساكات الخائقة ولا الإسهالات المثبطة منذ أن قرر ، في أكثر قرارات حياته سرية - حتى أن لو كريتيا نفسها لن تتوصل إلى معرفة هذا القرار بالكامل - ، أن يكون كاملاً في جزء قصير من اليوم .

أغمض دون ريغوبيرتو عينيه وبذل جهداً خفيفاً . لم يكن بحاجة إلى المزيد : أحس على الفور بالدغدغة المريحة في المستقيم ، والشعور بأن هناك في الداخل ، في تجاويف أسفل بطنه ، شيئاً مذعناً يستعد للمغادرة ويتوجه نحو بوابة الخروج تلك التي بدأت تتسع لتسهيل مروره . وبدأت فتحة الشرج من جهتها تتمدد ، مسبقاً ، متهينة لإنجاز طرد المطرود ، لكي تنغلق بعد ذلك وتتغصن بآلاف تجعدات الصغيرة ، وكأنها تقول ساخرة : «ها قد خرجت أيها القدر ، ولن تعود أبداً» .

ابتسم دون ريغوبيرتو بسعادة ، وفكر : «التغوط ، التبرز ، الخروج ، أهي مرادفات للسعادة ؟» . أجل ، ولم لا . بشرط عمل ذلك ببطء وتركيز ،

مستمعاً بالمهمة ، دون أدنى تسرع ، متباطئاً ، وطابعاً عضلات المعى برعشة رقيقة . لا حاجة لبذل جهد في الدفع ، وإنما الاكتفاء بالتوجيه ، والمرافقة ، والمراقبة اللطيفة لانزلاق تلك القطع نحو بوابة الخروج . وعاد دون ريغوبيرتو إلى التنهد ، الحواس الخمس مستغرقة فيما يحدث داخل جسده . يمكنه تقريباً أن يرى المشهد : تلك التقلصات والتمددات ، وهذه العصارات والكتل وهي تعمل ، كل ذلك في ظلمة الجسد الدافئة وبصمت تقطعه بين حين وآخر غرغرات صماء أو ريح ضرطة مرحة . وسمع أخيراً الارتطامة التي غطست - هل طفت ، أم غرقت ؟ - بها الكتلة الأولى الخارجة من أحشائه في ماء قاع تجويف المرحاض . وستسقط ثلاث أو أربع قطع أخرى . رقمه الأولمبي هو ثمان قطع ، تكون نتيجة غداء مفرط ، فيه خليط قاتل من الدهون والمعجنات والنشويات مضمخة بالنبيذ والكحول . إنه يُخرج عادة خمس قطع ، ومع خروج القطعة الخامسة ، بعد ثوان من الانتظار لمنح العضلات ، والأمعاء ، والشرح ، والمستقيم الوقت اللازم لاستعادة وضعها الطبيعي ، يداهم هذا الإحساس ببهجة إنجاز الواجب وتحقيق الهدف ، وهو إحساس التطهر الروحي الذي كان يستولي عليه في طفولته ، في مدرسة لاريكوليتا ، بعد الاعتراف بخطاياہ وإنجازه التكفير الذي يفرضه عليه كاهن الاعتراف .

« ولكن تنظيف البطن هو أقل التباساً من تنظيف الروح » ، فكر . إن معدته نظيفة الآن ، لا شك في ذلك . باعد ما بين ساقيه ، وأحنى رأسه ونظر : هذه الأشكال الأسطوانية والشهباء ، الغاطسة في تجويف مقعد المرحاض البورسلين الأخضر ، تؤكد ذلك . فأى معترف يمكنه أن يرى وأن يلمس (إذا رغب في ذلك) النجاسات النتنة التي يُخرجها الندم والاعتراف والتكفير ، ورحمة الرب من الروح ؟ عندما كان مؤمناً ممارساً - وهو الآن

الأمر الأول فقط - لم تكن تفارقه الشكوك مطلقاً ، على الرغم من الاعتراف ، وبغض النظر عن إسهابه وطوله ، بأن شيئاً من الدنس يبقى عالقاً بجدران الروح ، بعض النتف المتמרدة والعنيدة التي لا يتمكن التكفير من إزالتها . وفيما عدا ذلك ، كان هذا الإحساس يراوده أحياناً ، وإن بصورة متناقصة ودون غم ، منذ أن قرأ في مجلة عن الطريقة التي يُطَهَّر بها أمعاءهم الشباب المستجدون في دير بوذي في الهند . العملية تتألف من ثلاثة تمارين رياضية ، وحبل ومبولة للفائض . ولها بساطة ووضوح الأشياء والأعمال الكاملة ، مثل الدائرة والجماع . كاتب النص ، وهو أستاذ يوغا بلجيكي ، كان قد مارس معهم خلال أربعين يوماً لكي يتقن تلك التقنية . ولكن وصفه للتمارين الثلاثة التي يُعجَّل بها المستجدون عملية التفوط لم يكن واضحاً مع ذلك بما يكفي لتصوره بطريقة شاملة ومحاكاة . ويؤكد أستاذ اليوغا أنه خلال تمارين الانحناء والالتواء والدوران تلك ، تذيب المعدة كل نجاسات وفضلات الوجبات الخاصة (وهي نباتية) التي يخضع المستجدون لتناولها . وبعد الانتهاء من مرحلة التطهر الأولى هذه للبطون ، يعتمد الشبان - وتصور دون ريغوبيرتو بشي ، من الكآبة رؤوسهم الحليقة وأجسادهم المتقشقة الملتفة بعباءات لها لون الزعفران أو ربما الثلج - يعتمد الشبان إلى اتخاذ الوضع المناسب : مرنون ، منحنون ، الساقان متباعدتان قليلاً وباطن القدمين مستقر جيداً على الأرض حتى لا يتحركوا ميليمتراً واحداً بينما الجسد - حَيَّة تبتلع ببطء الدودة اللانهاية - يمتص بتقلصات وتشنجات عكسية ، ذلك الحبل الذي ينثني وينبسط ويتقدم بهدوء وبصورة حتمية عبر متاهة الأمعاء الرطبة ، دفعاً بطريقة لا تُقاوم كل تلك البقايا ، والفضلات ، والعوالق ، والجُزئيات ، والزوائد التي خلفتها الكتل المغادرة وراءها .

«إنهم يتطهرون مثل من ينظف بندقية بالمِدْك» ، فكر وهو ممتلئ بالحسد . وتصور رأس الحبل المتسخ حين يرجع إلى الدنيا من عين المؤخرة الكيفيدوية ، بعد أن يكون قد جاب ونظف كل تلك الأحشاء الملتوية والمظلمة ، ورآه يخرج ويسقط في المبولة مثل حية ذاوية . وهناك يبقى ، مهملاً ، مع آخر النجاسات التي أخرجها حضوره ، وجاهزاً للحرق . يا للراحة التي يشعر بها أولئك الشبان! يا للخفة التي يشعرون بها! يا للطهارة! لا يمكنه محاكاتهم أبداً في تلك التجربة على الأقل . ولكن دون ريفوبيرتو كان واثقاً من أنهم إذا كانوا يتفوقون عليه في تعقيم الأمعاء ، فإنه أشد تدقيقاً بما لا يقاس في كل طقوس نظافته الأخرى من أولئك الغريبيين .

قام بدفعة أخيرة ، متحفظة ودون صوت ، لعل هناك شيئاً . أتكون صحيحة تلك الطرفة التي تقول إن الكاتب العلامة دون مارثيلينو مينينديث أي بيلايو^(١) الذي كان يعاني من إمساك مزمن ، قد أمضى شطراً كبيراً من حياته جالساً في المرحاض ، في بيته في سانتاندير ، وهو يشدّ جاهداً ؟ وهناك من أكد لدون ريفوبيرتو أنه يمكن للسائح أن يرى في بيت - متحف المؤرخ والشاعر والناقد الشهير ، المكتب النقال الذي أمر بصنعه لكي لا يقطع أبحاثه وتحقيقاته بينما هو يصارع ضد بطنه النهم المصّر على عدم التخلي عن القذارة البرازية المودعة فيه من المأكولات الأسبانية الوافرة والغليظة . وكان دون ريفوبيرتو يتأثر وهو يتخيل ذلك المثقف المربوع ذا العقل المنفتح والمعتقدات الدينية الراسخة ، قابلاً على مرحاضه الخاص ، ربما وهو متدثر ببطانية سميكّة ذات مربعات تغطي ركبتيه لمقاومة برد الجبال الجليدي ، يدفع ويدفع على امتداد الساعات ، في الوقت الذي يواصل فيه ،

(١) مؤرخ وكاتب إسباني مشهور ، ولد في سانتاندير ١٨٥٦ وتوفي في عام ١٩٦٨ .

بأعصاب هادئة ، نبش المصنفات القديمة والمطبوعات البدائية المعفرة حول تاريخ إسبانيا بحثاً عن هرطقات ، وكفر ، وانشقاقات ، وتجديفات ، وشذوذات مذهبية ليصنفها ويدرسها .

مسح مؤخرته بأربع مربعات مطوية من الورق الصحي ثم أجرى دفقة الماء . ذهب بعد ذلك ليجلس على البيديه ، ملأه بالماء الفاتر ، ودعك شرجه وقضيبه وخصيتيه بالصابون جيداً ، وكذلك عانتة وما بين فخذه وإليته . ثم شطف كل ذلك بالماء ومسحه بمنشفة نظيفة .

اليوم هو الثلاثاء ، يوم القدمين . فقد كان أسبوعه موزعاً على الأجهزة والأعضاء : الاثنين لليدين ، الأربعاء للأذنين ، الخميس للأنف ، الجمعة للشعر ، السبت للعينين ، ويوم الأحد للبشرة . إنه العنصر المتغير في طقوسه الليلية ، العنصر الذي يمنحه نفحة تغييرية وإصلاحية . فالتركيز في كل ليلة على منطقة من جسده يتيح له أن ينجز نظافته وصيانتها باهتمام أكبر ، وفي الوقت نفسه معرفة هذه المنطقة ومحبتها أكثر . فكون العضو أو الجزء سيد اهتماماته ليوم ، يضمن العناية بالكل ، ليس هناك أفضليات ولا تأخيرات ، لا شيء من التراتبية الكريهة في المعاملة والاعتبار للجزء وللكل . وفكر : « جسدي هو ذلك الشيء المستحيل : مجتمع المساواة » .

ملأ المغسلة بالماء الفاتر ، وبينما هو جالس على غطاء مقعد المرحاض ، نقع قدميه لوقت لا بأس به لكي يَطْرَى كعباه ، وباطن قدميه ، وأصابعهما ، وكاحلاه ، وظاهر القدمين . لم يكن هناك أي نتوء في الإبهام ولا تسطح في القدمين ، ولكن ظاهرهما كان مرتفعاً بإفراط . ياه ، إنه تشوه صغير ، لا يلحظه من لا يخضعهما لفحص سريري . أما بالنسبة إلى حجم ، وتناسق ، وشكل الأصابع والأظفار ، وهيئة ومواصفات العظام ، فكل شيء يبدو طبيعياً بصورة مقبولة . الخطر كان يتمثل في التصلبات

والخشونات التي تحاول تشوييهما بين فترة وأخرى . ولكنه يعرف كيف يقطع دابر الخبث من جذوره ومنذ وقت مبكر دوماً .

كان حجر الخفاف جاهزاً . بدأ بالقدم اليسرى . وهناك ، عند حافة الكاحل ، حيث يزداد احتكاك الحذاء ، كان قد بدأ بالظهور تصلب عارض . راح يمر عليه مرة بعد أخرى بحجر الخفاف إلى أن اختفى . وأحس بسعادة أن تلك الحافة قد استعادت النعومة والنقاء اللذين ينعم بهما محيطها . ومع أن أصابعه لم تعثر على أي تصلب أو خشونة مؤكدة ، إلا أنه ، وعلى سبيل الاحتياط ، فرك بالحجر الخفاف باطن القدمين وظاهرهما ، وكذلك أصابع القدمين العشرة .

تناول بعد ذلك المقص والمبرد المهيئين سلفاً ، واستعد لقص الأظفار وتشذيبها ، إنها لذة لطيفة . الخطر الذي كان يحاول تفاديه هو داحوس الإصبع . وقد كان لديه منهج لا يخيب ، هو نتيجة ملاحظته الصبورة ومخيلته العملية : إنه يقص الظفر على شكل هلال ، تاركاً في الطرفين قرنين بارزين لا يلمسهما ، وبفضل شكلهما ذاك يبرزان من اللحم ولا ينغرسان فيه أبداً . وهكذا يكون بالإمكان ، فضلاً عن ذلك ، تنظيف هذه الأظفار الهلالية بصورة أفضل ، بفضل شكلها القمري في المحاق : فطرف المبرد يدخل بسهولة في الخندق أو التجويف ما بين الظفر واللحم حيث يتراكم الغبار ، ويتكثف العرق ، وتختفي بعض الشوائب . عندما انتهى من تقليم أظفاره وتنظيفها وتشذيبها ، كشط القشيرات بإسهاب حتى أخرج تلك التكونات السرية ، البيضاء ، المتبلورة في ثنايا القدمين بسبب الاحتكاكات وانعدام التهوية والتعرق .

انتهى من مهمته ، وتأمل قدميه وتلمسهما بتأثر راضٍ . ألقى إلى المرحاض القشيرات والقذارات التي جمعها في قطعة ورق صحي وشدة سلسلة

تدفق الماء . ثم ذلك قدميه بالصابون وشطفهما بالماء بعناية بالغة . وبعد أن جففهما ، نشر عليهما مسحوقاً يكاد لا يُرى وتنطلق منه رائحة خفيفة ورجولية ، كرائحة أزهار رقيب الشمس عند الفجر .

بقي عليه أن يكمل المهمات الثابتة في طقس النظافة اليومي : الفم والإبطين . وعلى الرغم من أنه كان يركز عليهما بحواسه الخمس ، مانحاً نفسه كل الوقت اللازم من أجل نجاح العملية ، إلا أنه كان يتقنها إلى حد يمكن معه لطقوس اهتمامه أن تنقسم وأن تتكرس جزئياً أيضاً كمبدأ جمالي ، مختلفة في كل يوم عن غيره من أيام الأسبوع ، مبدأ يستخرجه من ذلك المرجع ، أو القائمة ، أو الوصايا التي صاغها هو نفسه ، بصورة سرية أيضاً ، في هذه التحديدات الليلية ، في موضوع النظافة . والتي تشكل ديانته الخاصة وطريقته الشخصية في تجسيد اليوتوبيا .

وبينما هو يضع فوق طاولة الرخام الأمفر ، المعرق بالأبيض ، أدوات القداس الفموي - كأس ماء ، خيط تنظيف ، معجون أسنان ، فرشاة - اختار إحدى أكثر المسلمات التي هو متأكد منها... المبدأ الذي ما إن صاغه حتى لم تعد تراوده أية شكوك فيه على الإطلاق : « كل ما يلعب قبيح ، وخصوصاً الرجال اللامعون » . ملأ فمه بجرعة ماء وتمضمض بقوة ناظراً في المرأة إلى انتفاخ خديه ، وبينما هو يواصل المضمضة ليتخلص من الفضلات المفلّنة أو المترسبة على اللثتين أو العالقة بضعف بين الأسنان ، فكر : « هناك مدن لامعة ، ولوحات وقصائد لامعة ، وحفلات ، ومناظر ، وصفقات ، ومحاضرات لامعة » . ولا بد من تجنبها مثل العملة الرديئة حتى ولو كانت مطبوعة بألوان كثيرة ، أو مثل تلك المشروبات التروبيكالية المعدة للسياح ، والمزينة بفواكه وعيدان ملونة والمحلة كالشراب .

كان قد أمسك بين إبهام وسبابة كل يد بأحد طرفي قطعة خيط أسنان

طولها عشرين سنتمترأ . بدأ كعادته بالأسنان العلوية ، من اليمين إلى اليسار ثم من اليسار إلى اليمين ، متخذاً من القواطع نقطة انطلاق . كان يُدخل الخيط في الفجوة الضيقة ويرفع به حواف اللثة ، حيث تتراكم دوماً جزيئات فتات الخبز ، وفتائل اللحم الدقيقة ، والألياف النباتية ، وشعيرات الفواكه البغيضة . وكان ينظر بحماس طفولي إلى خروج هذه الفضلات الدخيلة ، مُستأصلة بالخيط ومهارته الاكروباتية . يبصقها في المغسلة ويرأها تنزلق وتختفي في البالوعة ، تسحبها الدوامة الصغيرة التي يشكلها الماء المندفع من الصنبور . ويفكر في أثناء ذلك : « هناك شعور لامعة تتوج أدمغة مُظلمة أو تحولها كذلك . إن أقبح كلمة في اللغة القشتالية هي مُلمع الشعر(برينتين) » . عندما انتهى من كشط صف الأسنان العلوي تمضمض من جديد ونظف الخيط تحت الماء المتدفق من الصنبور . ثم بدأ بالتألق نفسه والحرفية ذاتها بتنظيف أسنان وأضراس الطابق السفلي . « هناك محادثات لامعة ، موسيقى لامعة ، أمراض لامعة مثل التحسس من حبوب الطلع ، والنقرس ، والاكتئاب ، والإجهاد . وهناك بالطبع لامعون لامعون . » تمضمض مرة أخرى وألقى بقطعة الخيط في سلة المهملات .

يمكنه الآن أن يفرشي أسنانه بالمعجون . وفعل ذلك ، محركاً الفرشاة من أعلى إلى أسفل ببطء ، وضاعطاً عليها لكي تتغلغل أوبارها - وهي أوبار طبيعية ولا يمكن أن تكون بلاستيكية بأي حال - إلى حميمية تلك الفجوات العظمية بحثاً عن فضلات الطعام التي نجت من تجريف خيط الأسنان . فرشى أولاً الوجه الخارجي ثم بعد ذلك الداخلي . وعندما تمضمض للمرة الأخيرة ، أحس في فمه بطعم النعناع والليمون اللطيف ، شديد الإنعاش والحيوية ، وكأن أحداً قد شغل فجأة مروحة في تلك الفجوة المحاطة باللثتين والحلق ، أو أشعل فيها مكيف الهواء ، وكما لو أن أسنانه وأضراسه لم تعد هذه العظام

الصلبة وغير الحساسة ، واكتسبت حساسية شفتين . «أسناني لامية» ، فكر بشيء من الغم . «حسن ، ربما هو الاستثناء الذي يؤكد القاعدة .» وفكر : «هناك نباتات لامية مثل الورد . وحيوانات لامية مثل قط الأنغورا» .

ورأى فجأة دونيا لوكريشيا عارية ، تتلاعب مع عشر قطيطات أنغورا تحتك بكل أجزاء جسدها البديع ، وتموء ، ولخشيتته من أن يأتيه انتصاب مبكر ، سارع إلى غسل إبطيه . إنه يفعل ذلك عدة مرات في اليوم : في الصباح ، عندما يستحم ، وفي حمام شركة التأمين عند الظهر ، قبل الخروج للغداء . ولكنه في هذا الوقت فقط ، في الطقوس الليلية ، يفعل ذلك وهو يعي ويستمتع مثل من يمارس لذة محرمة دون زيادة ولا نقصان . شطف في أول الأمر إبطيه بماء فاتر وكذلك ذراعيه ، وكان يدلّهما بقوة لتنشيط الدورة الدموية . ثم ملأ المفصلة بماء ساخن ووضع فيه قليلاً من الصابون المعطر إلى أن رأى السطح السائل يعج بالرغوة . غمس كل واحد من ذراعيه في السخونة المداعبة وفرك الإبطين بصبر ومحبة ، مشعشعاً ومحللاً خصل شعرهما الأشهب في ماء الصابون . بينما كان ذهنه يواصل : «هناك عطور لامية مثل عطر الورد والكافور» . وأخيراً جفف إبطيه وعطرهما بكولونيا خفيفة جداً ، توحى برائحة البشرة المبللة بالبحر أو بنسمة بحرية تضمخت في مرورها بدفينة زهور .

«إنني كامل» ، قال ذلك وهو ينظر إلى نفسه في المرآة ، ويشم رائحته . لم يكن هناك في تفكيره أي ذرة من الغرور . فهذا الاعتناء الدقيق جداً بجسده لم يكن يهدف به إلى جعل نفسه أكثر تأنقاً أو أقل قبحاً ، هذه التجملات التي تكرر بطريقة ما - ودون وعي في أغلب الأحيان - المثل الأعلى الاجتماعي المبتذل - أولاً يبدو «جميلاً» على الدوام في نظر الآخرين ؟ - ، وإنما جعله يشعر ، بهذه الطريقة ، بأنه يعرقل إلى حد ما

معول الزمن القاسي ، وأنه يوقف أو يؤخر بذلك التردّي المشؤوم الذي تفرضه الطبيعة لتقويض ما هو موجود . الإحساس بخوض هذه المعركة يبعث الراحة في نفسه . ولكنه فوق ذلك ، ومنذ أن تزوج ، كان يقاتل ، دون أن تعرف لوكريثيا ذلك ، ضد التردّي باسم زوجته أيضاً . وفكر : « مثلما كان يقاتل آماديس من أجل أوريانا » . وفكر : « لك ومن أجلك يا حبي » .

تصوره أنه سيجد زوجته - بعد أن يطفىء النور ويخرج من الحمام - في الفراش ، تنتظره في شبه إغفاءة حسية ، كل تكوراتها متأهبة ومستعدة للاستيقاظ بمداعباته ، شقه من رأسه إلى قدميه . « لقد أكملت الأربعين ولم تكوني يوماً أجمل مما أنت عليه » دمدم وهو يتقدم نحو الباب . « أحبك يا لوكريثيا » .

وقبل ثانية واحدة من غرق الحمام في الظلام ، لمح في إحدى المرايا أن انفعالاته ومغازلاته قد حولت إنسانيته إلى شبح محارب ، إلى بروفيل شخصية فيها شيء حيواني عجيب من ميثولوجيا العصور الوسطى : الحصان المقرن .

« ٧ »

فينوس مع أمور وموسيقى^(١)

إنها فينوس الإيطالية ، ابنة جوبيتر ، وأخت أفروديت الإغريقية . عازف الأرغن يعطيها درساً في الموسيقى . وأنا أدعى «آمور» . إنني صغير ، طري ، وردي ، ومجنح . عمري ألف سنة وأنا متعفف مثل يعسوب . الغزال والطاووس والأيل التي تبدو من النافذة هي حية تماماً مثل العاشقين المتلاصقين اللذين يتمشيان في ظل أشجار الممر . أما ساتور النافورة الذي يتدفق من رأسه ماء بلوري من جفنة مرمرية ، فهو غير حي : إنه قطعة رخامية توسكانية نحتها فنان ماهر آت من جنوبي فرنسا .

ونحن الثلاثة أحياء أيضاً ومستيقظين مثل الجدول النازل من الجبل مفرداً بين الحجارة أو مثل لفظ الببغاوات التي باعها إلى سيدنا دون ريفوبيرتو تاجر من أفريقيا . (الحيوانات الحبيسة تعاني الضجر الآن في قفص في الحديقة .) لقد بدأ الفسق وعما قريب سيخيم الليل . وعندما يصل الليل بأسماله الرصاصية ، يصمت الأرغن ويتوجب علي أنا وأستاذ الموسيقى أن نغادر لكي يدخل سيد كل ما هو مرئي هنا إلى هذه الغرفة ويستولي على

(١) راجع اللوحة رقم (٢)

سيدته . وعندئذ تكون فينوس ، بفضل إرادتنا ومساعدتنا الحميدة ، مستعدة لاستقباله وإمتاعه بما هو جدير بثروته ومكانته . هذا يعني بنار بركان ، وحسية ثعبان ، وزهو قطرة أنغورا .

الأستاذ الشاب وأنا لسنا موجودين هنا للاستمتاع وإنما للعمل ، مع أن كل عمل ، وهذا صحيح ، يُنجز بفعالية وقناعة يتحول إلى لذة . ومهمتنا تتلخص في إيقاظ السعادة الجسدية في السيدة ، بإحياء رماد كل حاسة من حواسها الخمس حتى تتحول إلى لهيب ، وملء رأسها الأشقر بخيالات فاحشة . هذا ما يحبه دون ريفوبيرتو الذي نسلّمه إياها : متأججة ونهمة ، متخلصة من كل نوازعها الأخلاقية والدينية ، وعقلها وجسدها محشوان بالشهوات . إنها مهمة لطيفة ولكنها ليست سهلة ؛ تتطلب الصبر ، والمكر ، والمهارة في فن مواءمة اندفاع الغريزة مع رهافة الروح ورقة القلب .

موسيقى الأرغن الرتيبة والكنسية لا تخلق الجو المناسب . فالتفكير الشائع أن الأرغن ، المرتبط بالقدايس والإنشاد الديني ، يجرد الفاني الذي يسمع أنغامه من الحسية ، بل ويجرده كذلك من اللذة الجسدية . إنه خطأ فاحش ؛ فالحقيقة أن موسيقى الأرغن بفتورها اللجوج المتسلط وموائها العذب لا تؤدي إلا إلى فصل المسيحي عن العصر وعن الأحداث ، وإبعاد روحه بحيث يمكنها القلب في شيء حصري ومختلف : أجل ، في فكرة الرب والخلاص في حالات لا حصر لها ؛ ولكن في أشياء أخرى كثيرة أيضاً ، مثل الخطيئة ، الضياع ، الشبق ، وغيرها من المترادفات البلدية الفظة التي تعبر عنها هذه الكلمة النقية : اللذة .

صوت الأرغن يجعل السيدة تستكين وتنكمش ؛ يباغتها سكون لين يشبه النشوة ، فتغمض عندئذ عينيها لتركز أكثر في اللحن الذي كلما تغفل فيها ، يُبعد عن روحها مشاغل ومنازعات اليوم ويفرغه من كل ما هو غير

الاستماع والحس الصافي . هكذا تكون البداية . الأستاذ يعزف برشاقة وانطلاق ، دون تسرع ، بتصاعد عذب مهدئ للأعصاب ، مختاراً مقطوعات ملتبسة تنقلنا بسرية إلى الخلوات المتقشفة للقديس برناردو ، وإلى مواكب الشوارع التي تتشكل فجأة في كرنفال وثنى ، ثم من هناك ، ودون فاصل انتقالي ، إلى كورال التراتيل الغريغورية في دير أو إلى قداس مغنى في كندرائية مع فيض من الكردينالات ، وأخيراً رقصة تنكرية مختلطة ، في منزل ريفي . النبيذ يسيل بغزارة وهناك تبدلات مربية في عرائش الحديقة . راعية صغيرة جميلة تجلس على ركبتى عجوز شبق ومكرش ، ينزع قناعه فجأة . فمن يكون ؟ إنه أحد العاملين في الإسطنبول! أو إنه أبله القرية المخنث الذي له قضيب رجل وثندي امرأة!

وسيدتي ترى هذه الصور لأنني أصفها لها في أذنها ، بصوت هامس ماجن ، على إيقاع الموسيقى . فمعارفي تترجم لها أنغام الأرغن المتواطئة إلى أشكال وألوان وصور وأعمال مهيجة . وهذا هو ما أفعله الآن وأنا شبه ملتحم بظهرها ، وجهي الناعم الصقيل بارز مثل رابية صغيرة فوق كتفها : أهمس لها خرافات آثمة... قصصاً خيالية تشغل ذهنها وتجعلها تبتسم ، قصصاً خيالية تهيجها وتلهبها .

لا يمكن للأستاذ أن يتوقف لحظة واحدة عن عزف الأرغن : لأنه سيفقد رأسه إن فعل ذلك . لقد حذره دون ريغوبيرتو مسبقاً : «إذا ما توقفت الأنغام لحظة واحدة ، فسوف أفهم من ذلك أنك قد استسلمت لإغواء اللمس . وعندئذ سأغرس هذا الخنجر في قلبك وألقي بجثتك إلى كلاب الصيد . وسنعرف الآن ما هو الأقوى فيك يا فتى : الرغبة في زوجتي أم التعلق بالحياة» . إنه التعلق بالحياة طبعاً .

ولكنه يستطيع النظر بينما هو يضغط على ملامس الأرغن . وهذا

امتياز يشرفه ويهيجه ، ويجعله يشعر بأنه ملك أو إله . إنه يستغل هذا الامتياز باستمتاع وتلذذ . كما أن نظراته تسهل مهمتي وتكملها ، لأن السيدة حين تلحظ الحرارة والولاء اللذين تسجيها لهما عينا ذلك الوجه الأمرد ، وتحس اللففة المحمومة التي توقظها تكوراتها البيضاء اللدنة في هذا الفتى الحساس ، لا تستطيع منع نفسها من التأثر والوقوع في نزوات شهوانية .

وخصوصاً عندما ينظر عازف الأرغن إلى حيث ينظر الآن . ما الذي يجده أو يبحث عنه الموسيقي الشاب في ذلك الركن الفينوسي ؟ ما الذي تحاول اختراقه حدقته العذراوان ؟ ما الذي يجذبه بهذه الطريقة إلى مثلث البشرة الشفاف ذاك ، المحاط بأوردة زرقاء مثل جداول ، والذي يظله دغل العانة منزوعة الشعر ؟ أنا لا أستطيع قول ذلك ، وأظنه غير قادر هو أيضاً على قوله . ولكن ثمة شيء هناك يجتذب عينيه كل مساء بتسلط القضاء والقدر أو بسحر رقية . شيء يمكن التكهّن أنه عند الحافة المشمسة لقمة فينوس ، في التجويف الطري الذي يحميه عموداً فخذي السيدة المسبوكين ، يسيل ينبوع الحياة واللذة إسفنجياً ، محمراً ، رطباً بندي الحميمة . وعما قريب سينحني سيدنا دون ريغوبيرتو لينهل من ذلك الكوثر . عازف الأرغن يعرف أن هذا الشراب محرم عليه إلى الأبد لأنه سيدخل عما قريب إلى دير الرهبان الدومينكان . إنه فتى نقي أحس منذ طفولته المبكرة بنداء الرب ولا يمكن لأي شيء أو لأي شخص أن يُبعده عن الرهبة . مع أن هذه الجلسات الفسقية ، مثلما اعترف لي ، تجعله يتعرق ثلجاً وتملاً أحلامه بشياطين لهم أئداء ومؤخرات نساء ، ولكنها لا تُضعف ميله الديني . بل إنها أقنعت ، من أجل إنقاذ روحه ومساعدة آخرين في إنقاذ أرواحهم ، بالتخلي عن مبادئ هذا العالم ولحمه . ربما هو ينظر إلى بستان سيدته المجعد لمجرد أن يثبت

لنفسه ويُظهر للرب أنه قادر على مقاومة وساوس الإغواء ؛ بما في ذلك أشدها شيطانية : جسد سيدتنا الخالد .

أنا وهي لا نعرف هذه المشاكل الضميرية والأخلاقية . فأنا لستُ إلا إله وثنى صغير ، والأدهى أنه لا وجود لي إلا في مخيلة البشر ، أما هي ، فإنها زوجة مطيعة تُخضع نفسها لهذه الجلسات التحضيرية لليلة الزوجية احتراماً لمشينة زوجها الذي يبرمجها في أدق تفاصيلها . هذا يعني إذن أنها زوجة منقادة لإرادة سيدها ، مثلما يجب أن تكون الزوجة المسيحية ، فإذا ما كانت هناك خطيئة في هذه المآدب الحسية ، فمن المفروض أن تُسوّد فقط روح من يُحيكها ويأمر بها من أجل متعته الشخصية .

كما أن تسريحة شعر السيدة الدقيقة والمعقدة بتجعيداتها وتموجاتها وكثرة تغنجاتها المنسدلة ، وارتفاعاتها وزينتها بالآلئ الغريبة ، هو مشهد يرتبه دون ريغوبيرتو نفسه . فهو من يعطي تعليمات محددة إلى مصففي الشعر ، وهو من يستعرض يومياً ، مثلما يستعرض القائد جنده ، جيش حليّ زينة السيدة ليختار أيها سيتألق اليوم على شعرها ، وأيها سيحيط بجيدها ، وسيتدلى من أذنيها الشفافتين وسيضغط على أصابعها ومعصمها . وهي تقول إنه يهمس لها وهو يحبها : « أنتِ لستِ أنتِ وإنما أنت وهمي . لن تكوني اليوم لوكريثيا وإنما فينوس ، وستحولين اليوم من بيروية إلى إيطالية ومن دنيوية إلى إلهة ورمز » .

ربما كانت كذلك في أوهاام دون ريغوبيرتو الغامضة ، ولكنها ما تزال واقعية ، مادية ، حية مثل وردة لم تُقطف من الغصن أو مثل عصفور يغرد . أليست امرأة جميلة ؟ بلى ، إنها باهرة الجمال . وخصوصاً في هذه اللحظة ، عندما بدأت حواسها تستيقظ ، تنبها خيمياء الألحان الذكية المنبعثة من الأرغن ، ونظرات الموسيقى الهيابة ، والبذئات الملتهبة التي أقطرها في

مسمعا . يدي اليسرى التي فوق صدرها ، تحس كيف أخذت بشرتها تتوتر وتسخن . لقد بدأ دمها يفور . هذه هي اللحظة التي تبلغ فيها الذروة ، أو (لنقل ذلك بطريقة مثقفة) اللحظة التي يسميها الفلاسفة المطلق أو التي يسميها الخيميائيون تحول المادة .

الكلمة التي يمكنها أن تلخص جسدها هي : ممثلي . متهيج بخيالاتي الشبقة ، كل شيء فيها يتحول إلى انحناء ونتوء ، إلى تكور متعرج ولين في الوقت نفسه . هذا هو القوام الذي يفضلُه الذواقة الجيد لرفيقته في ساعة الحب : وفرة طرية تبدو وكأنها على وشك أن تسيل ولكنها تبقى متماسكة ، منفلطة ، لدنة مثل الثمرة الناضجة والعجينة المعجونة حديثاً ، هذه البنية اللينة التي يسميها الإيطاليون morbidizzqa ، الكلمة التي لها رنة شبقة حتى عندما تطلق على الخبز .

والآن وقد اشتعلت من الداخل ، رأسها يومض بصور ماجنة ، سأتسلق ظهرها وأتقلب فوق جغرافية جسدها الصقيل ، مدغداً إياها بجناحي في الأماكن المناسبة ، وواثباً بمرح مثل جرو سعيد على وسادة بطنها الدافئة . حركاتي المتلاعبة هذه تُضحكها وتأجج جسدها حتى تحوله إلى جمرة . إن ذاكرتي تسمع ضحكاتها التالية التي ستأتي ، ضحكة تطفئ على تاوهات الأرغن وتغطي شفتي الأستاذ الشاب بلعاب سائل . عندما تضحك تتصلب حلمتا نهديهما وتنتصبا وكأن فماً غير مرئي يرضع منهما ، وتهتز عضلات معدتها تحت البشرة المشدودة العابقة برائحة الفانيлия موحية بغنى كنز حميميتها بدفئه وعرقه . وفي هذه اللحظة يتمكن أنفي الأفطس من شم أريج عصاريتها السرية العابقة مثل جبن زنخ . عطر قريح الحب هذا يجنن دون ريغوبيرتو الذي - وهي أخبرتني بذلك - ، يجثو مثل من يصلي ، ليرتشفه ويشرب منه إلى أن تُسكره السعادة . وهو يؤكد أنه المنشط الجنسي

الأفضل من كل أكاسير الخلائط القذرة التي يبيعها سحرة وقوادات هذه المدينة للمحبين . « طالما أنت تعبقين بهذه الرائحة ، سأكون عبدك » ، تقول هي إنه يقول لها ذلك بلسان مرتخ وبنشوة الحب .

عما قريب سيُفتح الباب ونسمع همس خطوات دون ريغويرتو على السجادة . قريباً سنراه يطل على حافة هذا السرير ليتأكد إذا ما كنا قادرين ، أنا والأستاذ ، على تقريب الواقع المبتذل من بريق مخيلته . وحين يسمع ضحك السيدة ، ويراه ، ويتنفسها ، يدرك أن شيئاً من ذلك قد تحقق . وعندئذ يقوم بإيماء موافقة لا تكاد تكون ملحوظة ، وهي تعني بالنسبة إلينا الأمر بالانصراف .

يصمت الأرغن ؛ وبتحية عميقة ، يختفي الأستاذ عبر فناء أشجار البرتقال وأقفز أنا عبر النافذة وأبتعد محلقاً نحو ليل الحقول الشذي . ويبقيان هما الاثنان وحدهما في الغرفة مع مهمات حربهما الرقيقة .

« ٨ »

ملح دمومه

كانت عينا خوستينيانا مفتوحتين مثل طبقين ولا تتوقفان عن الحركة .
وكانت ذراعاها تبدوان وكأنهما ريشتا مروحة :
- الطفل ألفونسو يقول إنه سينتحر! لأنك ما عدت تحيينه على حد قوله!
- وترمش مذعورة - . إنه يكتب إليك رسالة وداع يا سيدتي .
- أهذه واحدة أخرى من هذياناتك التي...؟ - تلعثمت دونيا لوكريشيا
بينما هي تنظر إليها من خلال مرآة خوان الزينة - . يبدو أن هناك عصافير
في رأسك ، أليس كذلك ؟
ولكن وجه الخادمة لم يكن مازحاً ، فأفلتت دونيا لوكريشيا ملقط الشعر
الذي كانت تشذب به شعر حاجبيها وتركته يسقط على الأرض واندفعت
راكضة تهبط السلم ، تتبعها خوستينيانا . كان باب غرفة الطفل مقفلاً
بالمفتاح . طرقت الخالة بأصابعها : « ألفونسو ، ألفونسيتو » . فلم يأتها أي
رد ولم يُسمع أي صوت في الداخل .
- فونتشو! فونتشيتو! - ألحت دونيا لوكريشيا وهي تطرق الباب
مجدداً . وكانت تشعر بأن ظهرها يتجمد - . افتح! هل أنت على ما يرام ؟
لماذا لا تجيب ؟ ألفونسو!

دار المفتاح في القفل ، محدثاً صريراً ، ولكن الباب لم يُفتح . ابتلعت
دونيا لوكريثيا جرعة من الهواء . وعادت الأرض راسخة من جديد تحت
قدميها ، وبدأ العالم يستعيد نظامه بعد أن كان جلبة زلقة .
أمرت خوستينيانا :

- دعيني معه على انفراد .

دخلت إلى الغرفة ، وأغلقت الباب وراءها . كانت تبذل مجهوداً لتكبح
السخط الذي راح يستولي عليها بعد أن انقضى الذعر الآن .
كان الطفل ما يزال بقميص وبنطال الزي المدرسي ، وكان يجلس إلى
طاولة عمله ، خافضاً رأسه . رفعه ونظر إليها بثبات وحزن ، وبدأ أجمل مما
كان عليه على الإطلاق . وبالرغم من أن الضوء كان ما يزال يأتي من
الخارج ، إلا أنه كان قد أشعل مصباح المنضدة ، وفي دائرة الضوء الذهبية
التي تسقط على النشافة المائلة إلى الخضرة ، لمحت دونيا لوكريثيا رسالة
غير مكتملة ، حبرها مازال يلمع ، ورأت قلماً مفتوحاً إلى جانب يده الصغيرة
ذات الأصابع الملطخة .

اقتربت بخطوات بطيئة وهمست :

- ماذا تفعل ؟

كان صوتها يرتعش ، وكذلك يداها ؛ وكان صدرها يعلو وينخفض .

ورد الطفل على الفور بحزم :

- أكتب رسالة . إنها موجهة إليك .

فابتسمت محاولة أن تبدي الملاطفة :

- موجهة إليّ ؟ هل يمكنني قراءتها إذن ؟

- ليس بعد .. وكان في نظريته تصميم رجولي وفي نبرة صوته تحدّر

واضح : - إنها رسالة وداع .

- رسالة وداع ؟ وهل أنت ذاهب إلى مكان ما يا فونتشيتو ؟
- سأقتل نفسي - سمعته دونيا لوكريثيا يقول ذلك وهو ينظر إليها
بشبات ودون أن يتحرك . لكن تماسكه ما لبث أن انكسر بعد ثوانٍ قليلة
وتخضلت عيناه : - لأنك لا تحبينني يا خالتي .

سماعه يتكلم بهذه النبرة ما بين المغمومة والعدوانية ، بوجهه الصغير
المتجعد في تكشيرة يحاول عبثاً كبجها ، مستخدماً كلمات عاشق مخذول لا
تتوافق كثيراً مع وجهه الأمرد ، وبنطاله القصير ، كل ذلك جرد دونيا
لوكريثيا من مقاومتها . فوقفت صامتة ، مفتوحة الفم ، لا تدري بماذا ترد .
- ولكن ، ما هذه الحماقات التي تتفوه بها يا فونتشيتو - تلعثمت
أخيراً ، محاولة التماسك قدر الإمكان : - أتقول إنني لا أحبك ؟ ولكنني
أعبرك يا قلبي مثل ابن لي . أنا أعبرك...

صمتت ، لأن ألفونسو ألقى بجسده عليها واحتضنها من خصرها ،
وانفجر بالبكاء . كان ينتحب ملصقاً وجهه ببطن دونيا لوكريثيا ، بينما
جسده الصغير يهتز بزفريات يرافقها لهاث متلهف كلهات جرو جائع . إنه
طفل ، أجل ، ليس هناك شك في ذلك الآن ، بسبب اليأس الذي في مكانه
واستهتاره في إظهار ألمه وحزنه دون حياء . وداعبت دونيا لوكريثيا شعره
بينما هي تناضل كيلا يهزمها التأثير الذي بدأ يطبق على حنجرتها ويخضل
عينيه . كانت مضطربة ، ضحية مشاعر متناقضة ، وهي تسمعه يفيض
بمكنون قلبه ، متلعثماً بشكاويه :

- منذ أيام وأنت لا تكلمينني . أسألك شيئاً فتعرضين عني . ولم تعودني
تسمحين لي بتقبيلك مع تحية الصباح والمساء ، وحين أرجع من المدرسة
تنظرين إليّ وكأن دخولي إلى البيت يزعجك . لماذا يا خالتي ؟ ما الذي
فعلته لك ؟

كانت دونيا لوكريثيا تعارضه وتقبل شعره . لا يا فونتشيتو ، لا شيء مما تقوله صحيح . أي حساسية هذه أيها الصغير! وكانت تبحث عن أكثر الأساليب رفقا لكي توضح له . وكيف لا أحبك! يا صغيري ، يا قلبي! ولكنها تعيش متعلقة به ومفكرة به على الدوام ، سواء حين يكون في المدرسة أو حين يلعب كرة القدم مع أصدقائه . وكل ما هنالك هو أنه ليس من المناسب أن يبقى ملتصقا بها ، لأنه سيتعلق في هذه الحالة بخالته . ويمكن لهذا أن يلحق الضرر به ، ويحوطه إلى شخص تافه ، شديد التهور ومندفعاً في عواطفه . فمن وجهة النظر العاطفية ، لا يستحسن أن يتعلق بشخص مثلها ، أكبر منه سناً بكثير . فعاطفته واهتماماته يجب أن يتقاسمها مع أشخاص آخرين ، مع أطفال في مثل سنه ، مع أصدقائه الصغار ، مع أبناء عمومته . وهكذا يمكن له أن يكبر بسرعة ، ويمتلك شخصيته الخاصة ، ليكون رجلاً له شخصيته المستقلة بحيث يمكن لها ولدون ريغوبيرتو أن يفخروا به فيما بعد .

ولكن بينما دونيا لوكريثيا تتكلم ، كان هناك شيء في قلبها يكذب ما تقوله . وكانت واثقة كذلك من أن الطفل لا يولي اهتماماً لما تقوله . بل ربما لم يكن يسمعها . وفكرت : «لست مؤمنة بكلمة واحدة مما أقوله له» . وبعد أن توقف نحيب ألفونسيتو الآن ، وإن كانت ما تزال تهزه بين حين وآخر زفرة عميقة ، بدا وكأنه يركز تفكيره على يدي خالته . كان قد أمسك بهما وراح يقبلهما ببطء ، بخجل ، بمداهنة . وبينما هو يفركهما على خده الأملس بعد ذلك ، سمعته دونيا لوكريثيا يهمس بخفوت ، وكأنه يتوجه إلى الأصابع التي يضغط عليها بشدة : «أنا أحبك كثيراً يا خالتي . كثيراً ، كثيراً... لا تعامليني مثلما فعلت في هذه الأيام أبداً بعد اليوم ، وإلا فإنني سأقتل نفسي . أقسم لك إنني سأقتل نفسي» .

وعندئذ بدا كما لو أن حاجزاً كان يكبحها من الداخل قد تلاشى فجأة ، وأن سيلاً جارفاً قد اندفع مكتسحاً ومُغرقاً حذرهما وتعقلها ، ومحطماً مبادئ سلفية راسخة لم تكن تراودها أي شكوك بشأنها ، بما في ذلك غريزتها المحافظة . انحنت ، وأسندت إحدى ركبتيها إلى الأرض لتصبح عند مستوى الطفل الجالس ، وعانقته وداعبته متحررة من القيود ، شاعرة بأنها امرأة أخرى ، وكما لو أنها في قلب عاصفة .

- أبدأ بعد اليوم - كررت ما قاله بمشقة ، لأن التأثير كان يكاد لا يسمح لها بصياغة الكلمات - . أعاهدك بأنني لن أعاملك أبدأ هكذا . الفتور الذي أبديته في هذه الأيام كان مصطنعاً يا صغيري . كم كنت حمقاً حين ظننت بأنني أقدم لك خدمة فأسأت إليك . سامحني يا قلبي...

وكانت في الوقت نفسه تقبل شعره المشعث ، جبهته ، خديه ، وتحس في شفتيها بملح دموعه . وعندما بحث فم الطفل عن فمها ، لم تصده عنه . أغمضت عينيها وتركته يقبلها ، وأعادت إليه القبلة . وبعد لحظة تحمست شفتا الطفل ، فألحقا ودفعتا ، وعندئذ فتحت هي شفتيها وسمحت لأفعى صغيرة عصبية ، متعثرة ومذعورة في البدء ، ثم جريئة متمادية بعد ذلك ، بولوج فمها والتجول فيه متقافزة من جهة إلى أخرى على لثتيها وأسنانها ، ولم تُبعد كذلك اليد التي أحست بها فجأة فوق أحد نهديها . استكانت للحظة بهدوء ، وكأنها تستجمع قواها ، ثم تحركت ، وداعبته وهي تهم بالانصراف بحركة وقورة ، وبرقة . وبالرغم من أن صوتاً في أعماق روحها كان يستعجلها بالنهوض والانصراف ، إلا أن دونيا لوكريثيا لم تتحرك . بل شدت الطفل إليها وواصلت دون رادع تقبيله باندفاع وتحرر يتزايدان على إيقاع رغبتها . إلى أن سمعت ، كما في حلم ، صوت فرامل سيارة ، ثم سمعت بعد قليل صوت زوجها يناديها .

نهضت قافزة ، مرتعبة ؛ وانتقلت عدوى خوفها إلى الطفل الذي تضمخت عيناه بالذعر . رأت ملابس الفونسو المشعثة ، وآثار أحمر الشفاه على فمه . « اذهب واغتسل » ، أمرته بسرعة وهي تشير إلى وجهه ، فهز الطفل رأسه موافقاً وركض إلى الحمام .

خرجت من الغرفة دائخة ، بمشية تكاد تكون متعثرة ، واجتازت الصالون الصغير المطل على الحديقة . ثم حبست نفسها في حمام الزائرين . كانت تشعر بالوهن ، كما لو أنها قد راحت . وبينما هي تنظر في المرآة ، داهمتها نوبة ضحك هستيرية فكبحتها بتفطية فمها . وشتمت نفسها « رعناء ، حمقاء » بينما هي تبلل وجهها بماء بارد . ثم جلست بعد ذلك على البيديه وفتحت الصنبور طويلاً . ثم أخضعت نفسها لعملية تنظيف دقيقة وأعدت ترتيب ثيابها وملامحها وبقيت هناك إلى أن أحست مجدداً بأنها قد استعادت هدوءها تماماً ، وأنها تتحكم بوجهها وحركاتها . وعندما خرجت لتحيي زوجها ، كانت طازجة وباسمة وكأن شيئاً غير طبيعي لم يحدث . ولكن ، بالرغم من أن دون ريغوبيرتو قد لاحظ أنها شديدة الرقة واللفظ مثلما هي كل يوم ، وطافحة بالمغازلات والاهتمام ، واستمع إلى طرائفها اليومية باهتمامه المعهود ، إلا أنه كان في دونيا لوكريشيا استياء خفي لم يفارقها لحظة واحدة ، غم يسبب لها بين وقت وآخر قشعريرة أو رعشة في بطنها .

تناول الطفل العشاء معهما . وكان رصيناً ورائعاً ، مثلما هو في العادة . واحتفل في ضحكات متقافزة بنكات أبيه ، بل وطلب منه أن يروي له غيرها ، « تلك النكات السوداء يا بابا ، تلك التي هي بذينة بعض الشيء » . وعندما التقت عينها بعينيه ، قدرت دونيا لوكريشيا عالياً عدم ملاحظتها في تلك النظرة الصافية ، الزرقاء الباهتة ، ظل أي سحابة ، أو أدنى بريق خبث أو تواطؤ .

بعد ساعات من ذلك ، في حميمية ظلام المخدع ، همس دون ريغوبيرتو مرة أخرى بأنه يحبها ، وبينما هو يغطيها بالقبلات ، شكرها على أيامه ولياليه ، وعلى السعادة الهائلة التي تطفح منه بفضلها . وسمعه يقول لها : « منذ أن تزوجنا وأنا أتعلم العيش يا لوكريشيا . لولاك لكنت مت دون أن أعرف حقاً ما هي المتعة . » وكانت تصغي إليه متأثرة وسعيدة ، ولكنها لم تكن قادرة حتى الآن على التوقف عن التفكير في الطفل . ومع ذلك ، فإن هذا الوجود الدخيل ، هذا الحضور الساذج والملائكي لم يكن يضعف لذتها ، بل كان يتبلها بماهية مهيجة ، محمومة .

وهمس دون ريغوبيرتو أخيراً :

- ألن تسأليني من أكون ؟

- من ، من أنت يا حبي ؟ - ردت عليه باللهفة المطلوبة ، مشجعة إياه .

وسمعه يقول ، وقد مضى بعيداً ، حيث لا يمكن اللحاق به في تحليق

خياله :

- إنني مسخ .

« ٩ »

شَبَه بَشَرِي^(١)

فقدتُ أذني اليسرى إثر عضة حين كنت أصارع بشرياً آخر على ما
أعتقد . ولكنني ما زلت أسمع مع ذلك صخب العالم من خلال الفتحة الضيقة
المتبقية . وأنا أرى الأشياء أيضاً ، وإن كان ذلك بصورة مائلة وبصعوبة .
فالتوء المائل إلى الزرقة ، إلى يسار فمي ، هو عين ، وإن كان لا يبدو
كذلك للوهلة الأولى . ووجودها هناك ، تعمل ، وتلتقط الأشكال والألوان ،
هو إحدى أعاجيب العلوم الطبية ، وشهادة دامغة على التقدم الاستثنائي الذي
يميز عصرنا الذي نعيش فيه . لقد كان محكوماً علي بأن أعيش في ظلمة
أبدية ، منذ الحريق الكبير - ولست أذكر إذا ما سببه قصف حربي أم عمل
تخريبي - ذلك الحريق الذي حُرم جميع الناجين منه من حاسة البصر ومن
نمو الشعر ، بفعل الأكاسيد . وكان من حسن حظي أنني فقدت عيناً واحدة
فقط ، أما العين الأخرى فقد أنقذها أطباء العيون بعد ست عشرة مداخلة
جراحية . إنها بلا رموش وهي تدمع بكثرة ، ولكنها تتيح لي تسليّة نفسي
بمشاهدة التلفزيون ، وتتيح لي خصوصاً أن أنتبه بسرعة إلى ظهور العدو .

(١) راجع اللوحة رقم (٤) .

الوعاء الزجاجي الذي أنا فيه هو بيتي . أرى من خلال جدرانها ولكن لا يمكن لأحد أن يراني من الخارج : إنه نظام ملائم جداً من أجل أمن المسكن في زمن المكاييد والشراك هذا . وزجاج منزلي مضاد للرصاص بالطبع ، ومضاد للجراثيم ، ومضاد للإشعاعات وللموجات الصوتية . وهو معطر على الدوام برائحة إبط ومسك تشير فيّ - وأعرف أنها تشير فيّ أنا وحدي فقط - اللذة .

لدي حاسة شم متطورة جداً في أنفي الذي أتلذذ وأتألم منه أكثر من أي موضع آخر . هل يمكنني أن أطلق اسم أنف على هذا العضو الغشائي والضخم الذي يلتقط كل الروائح ، حتى أقلها خفة ؟ إنني أعني الكتلة الرمادية التي تبدأ من مستوى فمي وتنزل إلى أسفل نامية حتى عنقي الذي يشبه عنق ثور . لا ، ليس هذا تضخماً في الغدة الدرقية ، وليس تفاحة آدم متضخمة بفعل خلل في الغدة النخامية . إنه أنفي . وأعرف أنه ليس جميلاً ولا مفيداً ، ذلك أن حساسيته المفرطة تحوله إلى عذاب لا يوصف عندما تتفسخ فارة في الجوار أو عندما تمر مواد نتنة عبر المواسير التي تخترق منزلي . ولكنني أوقره مع ذلك ، وأفكر أحياناً في أن أنفي هو مستقر روحي .

لست أملك ذراعين ولا ساقين ، ولكن بقايا أطرافي المبتورة ملتزمة ومتييسة تماماً بحيث يمكنني الزحف على الأرض بسهولة ، بل ويمكنني أن أركض إذا اقتضى الأمر . لم يتمكن أعدائي من النيل مني حتى الآن في أي واحدة من مطارداتهم . أتسألني كيف فقدت ذراعي وساقتي ؟ ربما في حادث عمل ؛ أو ربما كان السبب عقاراً تناولته أُمِّي ليكون حملها سليماً . (فالعلم لا يصيب في كل الحالات مع الأسف) .

عضوي الجنسي سليم لم يصبه أذى . يمكنني أن أمارس الحب بشرط أن يتيح لي الغلام (أو الأنثى) الذي يقوم بدور الشريك أن أتخذ وضعاً مريحاً

بحيث لا تلمس دماجلي جسده ، لأنها إذا ما انشقت ينبجس منها القيح
النتن وأعاني آلاماً فظيعة . إنني أحب الجماع ، ويمكنني القول إنني شهواني
بطريقة ما . صحيح أنني كثيراً ما أعاني الإخفاق أو سرعة القذف المُدلة .
ولكنني أحظى في أحيان أخرى بتهيجات طويلة ومتكررة تُشعرنني بأنني
فضائي ومتألق مثل الملاك جبرائيل . والقرف الذي أبعثه في عشاقِي يتحول
إلى جاذبية ، بل وإلى هذيان ، بعد أن يتغلبوا - بفضل الكحول أو المخدرات
في أغلب الأحيان - على حذرهم الأولي ويوافقوا على التقلب معي فوق
سرير . بل إن النساء يصلن إلى الوقوع في هواي ، والغلمان إلى الولوج
بقبحي . فالجميلة في أعماق روحها تُفتن بالوحش القبيح دوماً ، مثلما تذكر
الكثير من الحكايات والأساطير ، ومن الغريب ألا يعيش في قلب غلام
متألق شيء من الندم . فليس هناك من بين محبي من ندم يوماً على أنه
أحبني . فهم ، وهن ، يشكرون لي أنني علمتهم كيفية المواءمة الراقية ما
بين الرعب والرغبة من أجل تحقيق اللذة . فقد تعلموا معي أنه يمكن لكل
شيء أن يكون نافعاً جنسياً ، وأن أبحث وظيفة عضوية ، بما في ذلك وظائف
أسفل البطن تلك ، تصبح روحية ونبيلة حين ترتبط بالحب . ورقصة إيقاع
أسماء الفاعل - متجشناً ، متبولاً ، متغوطاً - التي يرقصونها معي ترافقهم
فيما بعد كذكرى كئيبة من الأزمنة الغابرة ، من ذلك النزول إلى القذارة (وهو
شيء يغوي الجميع ولكن قلة هم الذين يتجرؤون على اقترافه) الذي مارسوه
معي .

أكبر مصادر فخري هو فمي . ليس صحيحاً أنه مفتوح على مصراعيه
لأنني أنبح بياس . إنني أفتحه هكذا لكي أظهر أسناني البيضاء والحادة . ألا
يمكن لأي شخص أن يحسدني عليها ؟ يكاد لا ينقصني سوى اثنين أو ثلاثة
منها . أما البقية فهي ثابتة وضارية . إنها قادرة على طحن الحجارة إذا اقتضى

الأمر . ولكنها تفضل أن تروي غليلها من صدور وأرداف إناث العجول ، وأن تنغرس في أضرع وأفخاذ الدجاجات وفي نحور العصافير الصغيرة . فأكل اللحم هو امتياز الآلهة .

لستُ تعيشاً ولا أريد أن تشفقوا عليّ . إنني مثلما أنا وهذا يكفيني . ومعرفة أن هناك آخرين أسوأ حالاً هو عزاء عظيم بالطبع . ربما كان الرب موجوداً ، ولكن هل بقي لهذا الأمر أية أهمية مع كل ما جرى ، بعد بلوغ التاريخ هذه الحدود ؟ أيمكن للعالم أن يكون أفضل مما هو عليه ؟ أجل ، ولكن لماذا السؤال عن ذلك ؟ فقد بقيتُ على قيد الحياة ، وأنا أشكّل ، استناداً إلى المظاهر ، جزءاً من الجنس البشري .

انظري جيداً يا حبي . تعرفي عليّ ، تعرفي على نفسك .

« ١٠ »

متدرن وحسي

« كان هناك رجل ملتصق بأنف»^(١) ، رتل دون ريغوبيرتو بادناً طقوس يوم الخميس باستشهاد شعري . وتذكر خوسيه ماريا إغورين ، ذلك الشاعر المذهب الرقيق الذي كان يرى أن كلمة «أنف» مبتذلة صوتياً ، ففرنسها وأوردها nez في أشعاره .

هل أنفه قبيح جداً ؟ هذا يعتمد على الزجاج الذي يراه من خلاله . إنه مقبب ومعقوف ، دون أي عقد دونية ، وهو فضولي تجاه العالم ، شديد الحساسية ، حُدَيبي وزخرفي . وبالرغم من عناية دون ريغوبيرتو واحتياطاته فقد كانت تُفسده بين حين وآخر مجموعات من الحبيبات الصغيرة ، أما في هذا الأسبوع ، ومن خلال ما تقوله المرأة ، لم تظهر ولا واحدة منها ليضغط عليها ، ويُخرجها ، ويعقم مكانها بعد ذلك بماء الأكسجين . وبسبب نزوة جلدية لا تفسير لها ، يغطي الاحمرار جزءاً كبيراً من أنفه ، خصوصاً في طرفه السفلي ، هناك حيث ينحني ويتكور في نافذتين ، فتظهر بقعة حمراء ، لها لون نبيذ بورغونيا المعتق ، مثل ذلك اللون الذي يكشف السكرى .

(١) هذه العبارة هي مطلع قصيدة معروفة للشاعر كيفيدو يسخر بها من معاصره ومنافسه الشاعر لويس دي غونغورا .

ولكن دون ريغوبيرتو يشرب باعتدال ، مثلما يأكل ، بحيث لا يعود هناك حسب علمه ، سبب آخر ممكن لذلك الاحمرار إلا اختلال السيدة الطبيعة وضعف إرادتها . اللهم إلا إذا كان أنفه - وانفرج وجه زوج دونيا لوكريشيا عن ابتسامة تمتد من إحدى أذنيه إلى الأخرى - يعيش في حياء وهو يتذكر الأشياء الشبقة التي يشمها في الفراش الزوجي . وأحس دون ريغوبيرتو أن فتحتي عضوه التنفسي تتسعان على الفور ، مستبقتين نفحات تلك الإفرازات الجنسية - وفكر : « العطور المستحلبة » - التي ستنفذ بعد قليل من هناك وتضمخه حتى النخاع . وأحس بالتراخي والامتنان . إلى العمل إذن ، فكل شيء زمانه ومكانه : ولم يحن بعد وقت الاستنشاقات أيها الوقح .

نف بقوة في منديله ، نف إحدى فتحتي أنفه أولاً ثم الأخرى بعد ذلك ، بينما كانت إصبعه السبابة تسد الفتحة المعاكسة ، إلى أن تأكد من أن أنفه صار نظيفاً من المخاط والسوائل . وعندئذ ، بينما هو يمسك بيسراه العدسة المكبرة التي يستخدمها في استكشاف البطاقات البريدية وصور مجموعته من اللوحات الايروتيكية ، وفي دقائق الاغتسال التفصيلية ، ويحمل في يده اليمنى مقص الأظفار ، بدأ بتحرير أنفه من تلك الشعيرات غير الجمالية التي بدأت رؤوسها السوداء تطل إلى الخارج ، على الرغم من اجتثاثها قبل سبعة أيام فقط . كانت المهمة تتطلب تركيز العمل في زخرفة شرقية للتمكن من تحقيقها بسعادة ودون أن يجرح نفسه . وكانت العملية تبعث في دون ريغوبيرتو سكوناً روحية وادعة ، أقل قليلاً من حالة « الخواء والامتلاء » التي يصفها الصوفيون .

إرادته الحديدية في ترويض تعسفات جسده غير المرغوب فيها ، وإجبار هذا الجسد على الوجود ضمن حدود ثابتة يفرضها ذوقه السامي - وذوق لوكريشيا بطريقة ما - بفضل بعض التقنيات في الاجتثاث ، والقص ،

والطرد ، والسقي ، والدلك ، والحلق ، والتشذيب ، إلى آخره ، والتي توصل إلى إتقانها كحرفي يتقن عمله ، تعزله عن بقية البشر وتبعث فيه هذا الإحساس الاعجازي - الذي يصل ذروته عندما يجتمع بزواجه في عتمة المخدع - بأنه قد خرج خارج الزمان . بل هو أكثر من إحساس : إنه يقين مادي . لقد كانت خلاياه كلها طليقة في هذه اللحظة - تشاس تشاس تصدر عن شفرتي المقص المفضضتين ، تشاس تشاس وتهوي الشعيرات المقصوفة ببطء ، بانعدام وزن ، متأرجحة في الهواء ، تشاس تشاس من أنفه إلى دوامة المغسلة تشاس تشاس - ، متوقفة ، متخلصة من الترددي ومن عاديات الزمن . هذه هي الفضيلة السحرية للعمل الطقسي والتي كان البشر البدائيون قد اكتشفوها في فجر التاريخ : تحويل المرء ، لبعض اللحظات الأبدية ، إلى كينونة نقية . وكان هو قد أعاد اكتشاف هذه الحكمة على انفراد ، بجهده وعلى حسابه . وفكر : «إنها طريقة الوقف المؤقت للانحدار الدنيء وعبودية الحضارة ، وقناعات القطيع الخسيصة ، من أجل الوصول ، خلال معترضة قصيرة في اليوم ، إلى طبيعة سامية» . وفكر : «هذه سلفة من الخلود» . ولم تبد له الكلمة مبالغاً فيها . وفي هذه اللحظة كان يحس - تشاس تشاس ، تشاس تشاس - بأنه غير قابل للفساد ؛ وعما قريب ، حين يصير بين ذراعي وساقَي زوجته ، سيشعر بأنه ملك . وفكر : «بل إله» .

لقد كانت غرفة الحمام معبداً ؛ المغسلة هي مذبح القرايين ؛ وكان هو نفسه الكاهن الأكبر ، يقيم الصلاة التي تطهره وتخلصه كل ليلة من الحياة . وقال لنفسه : «بعد لحظة سأكون جديراً بلوكريثيا وسأكون معها» . وحدث أنفه القوي بينما هو يتأمله : «أقول لك إننا ، أنا وأنت ، سنكون بعد قليل في الفردوس يا لصي الطيب» . فاتسعت فتحتاه الشرهتان تتسممان المستقبل . ولكن بدلاً من التقاط الروائح الحميمة لسيدة البيت ، شم

الرائحة المعقمة للماء والصابون الذي كان دون ريفوبيرتو يزين به الآن أعماق أنفه المشذبة عن طريق نضح يدوي وحركات رأس حصانية .

مع انتهاء الجزء الحساس من الطقس الأنفي ، استطاع ذهنه أن يهيم من جديد في الخيال وأن يربط فجأة ما بين المخدع الزوجي الوشيك ، حيث تقبع لوكريشيا بانتظاره ، والمؤرخ والكاتب الهولندي جوهان هيزنفا الذي وصلت إحدى مقالاته إلى مكتبه ، وأقنعتة بأنها قد كُتبت خصيصاً من أجله ، من أجلها ، من أجلهما . وتساءل دون ريفوبيرتو وهو يغسل أنفه بماء نقي بواسطة قطارة : « أليس سريرنا هو المجال السحري الذي يتحدث عنه الإنسان اللعوب ؟ » . أجل ، إنه كذلك مجازياً . فالثقافة حسب قول الهولندي ، وكذلك الحضارة ، والحرب ، والرياضة ، والقانون ، والدين ، قد انبثقت كلها من تلك الأرضية التوافقية - مع تفرعات والتفافات ، بعضها سعيد وبعضها خبيث - للميل البشري إلى اللعب . إنها نظرية مسلية دون شك ، وثاقبة أيضاً ، ولكنها زائفة بالتأكيد . ومع ذلك ، فإن الحياء البشري لم يعمق تلك البديهة العبقريّة بتطبيقها في الميدان الذي يؤكد ، حيث يتضح كل شيء تقريباً بفضل الضوء .

« مجال سحري ، أرض أنشوية ، غابة للمحواس » بحث عن عبارات مجازية مناسبة لهذا البلد الصغير الذي تقطنه لوكريشيا في هذه اللحظة . وحسم الأمر : « مملكتي سرير » . كان يغسل يديه ، ويمسحهما . الفراش الفسيح يسمح للزوجين أن يتحركا براحة في هذا الاتجاه أو ذاك ويسمح لهما بالتمدد ، بل والتدحرج بتلقائية وعناق مرح دون خطر الوقوع أرضاً . إنه فراش وثير طري ولكنه مشدود ، نوابضه ثابتة ومستوية بدقة بحيث يمكن للجسدين أن ينزلقا عليه دون أن يجدا أدنى وعورة أو عقبة تتآمر ضد أي رياضة أو وضع أو حركة متهورة أو مزحة خلال الألعاب الغرامية . وارتجل

دون ريغوبيرتو بإلهام : « صومعة الشبق . الفراش - الحديقة حيث تتفتح
زهور زوجتي وتلقي خلاصة روائحها السرية إلى هذا المحفوظ الفاني » .
رأى في المرأة كيف بدأت فتحتا أنفه تنبضان مثل شديقين جائعين .
« دعيني أستنشقك يا حبي . » وسيشمها ويتنشقها من قدميها حتى رأسها ،
بإتقان ومثابرة ، متوقفاً مطولاً في بعض الأجزاء ذات الشذى الخاص ،
ومتسرعاً في أجزاء أخرى تافهة ؛ سيفحصها ويحبها أنفياً وهو يسمعها
تعترض ما بين ضحكات مكتومة : « آه ، يا حبي ، إنك تدغدغني » . أحس
دون ريغوبيرتو بإغماءة جزع عابرة . ولكنه لم يتعجل : من ينتظر لن يخيب
أمله . إنه يستعد للاستمتاع بإدراك ومعرفة أكبر .

كان يصل إلى نهايات طقس النظافة عندما صعد إلى أنفه عبير زهر
العسل النفاذة ، آتياً من الحديقة ، ومتسرباً من بين فواصل الزجاج .
أغمض عينيه واستنشق . إنه عطر مشاغب هذا الذي تفوح به هذه النبتة
المتسلقة غير المتماسكة . إنها تبقى أياماً طويلة منغلقة على نفسها ، دون
أن تطلق أريجها الأخضر ، وكأنها تكنزه وتكشفه ، وفي لحظات سرية من
النهار أو الليل ، بسبب رطوبة الجو ، أو بسبب حركة القمر والنجوم ، أو
بسبب كارثة أرضية خفية تحدث في الأعماق ، في باطن الأرض حيث تترقد
جذورها ، تُطلق على الدنيا هذه الرائحة الحامضة الحلوة والمشوشة التي تدفع
إلى التفكير في نساء سمرات ، ذوات شعور طويلة متموجة وبرقصات
تظهر في أثنائها ، من خلال دوامة التناير المنفلتة ، أفخاذ صقيلة ، أو إليات
مكتنزة ، أو كعوب ملساء ، أو تظهر ، مثل نور كاذب ، خصلة من شعر عانة
وارف .

أجل ، الآن - كانت عينا دون ريغوبيرتو مغمضتين وكان يبدو وكأن كل
طاقاته قد هرعت من بقية أنحاء جسده لتجتمع في جهاز التناسل والشم -

تشتم فتحتا أنفه زهور عسل دونيا لوكريثيا . وبينما الشذى الفاتر والكثيف ، مع تذكارات مسك ، بخور ، كرنب منقوع ، يانسون ، سمك بالخل ، بنفسج يتفتح ، عرق طفلة عذراء يصعد مثل تصوع نباتي أو حمم كبريتية حتى دماغه ، ويفجره بالشهوة ، كان أنفه ينتقل بحسية ، يمكنه الآن أن يحس كذلك بورقة السرخس المحببة تلك ، باللمس اللزج لشريحة الشفتين المتوهجتين ، بدغدة الجزاة المنفوشة الرطبة التي تداعب أوبارها الحريرية فتحتي أنفه فتزيد من تأثير الخدر الرقيق الذي يوفره له جسد حبيبته .

بذل دون ريغوبيرتو جهداً ذهنياً كبيراً - كرر نظرية فيثاغورس بصوت عال - لكي يوقف وسطياً الانتصاب الذي بدأ يكشف ذلك الرأس المتيم ، ورشه بحففات من الماء البارد ، فهدأه وأعاد ، منكمشاً ، إلى طيات شرنقته . تأمل بإشفاق القضيبي الطري الذي يتدلى من أسفل بطنه ، وقد صار الآن ساكناً ومرناً ، يتأرجح بخفة مثل مطرقة ناقوس . وقال مرة أخرى إنه كان محظوظاً جداً لأنه لم يخطر لأبويه أن يجريا له عملية ختان : فغلفته هي صانعة مجد أحاسيسه البهيجة ، وهو واثق من أنه لو حرم من هذا الغشاء الشفاف ، لكانت لياليه الغرامية أشد فقراً ، ولربما كان ذلك حرماناً خطراً أشبه بعمل سحري يؤدي إلى حرمانه من حاسة الشم .

وتذكر فجأة غريبى الأطوار أولئك الذين يعتبرون شم روائح غريبة وكريهة في نظر العموم هو حاجة حيوية مثل الأكل والشرب دون زيادة ولا نقصان . حاول أن يتخيل الشاعر فريدريك شيللر يغرس أنفه الحساس بنهم في ثمار التفاح المتعفنة التي كانت تلهمه وتهينه للإبداع والحب ، مثلما تفعل الصور الايروتىكية بدون ريغوبيرتو . وانتقلت مخيلته بعد ذلك إلى الوصفة الخاصة المقلقة لمؤرخ الثورة الفرنسية الأنيق ، ميشيليه - وكانت

إحدى نزواته مراقبته حبيبته آئين وهي تحيض - الذي كان يهجر المخطوطات والرقوق ومصنفات مكتبه عندما يغلبه التعب واليأس ، لينسل خفية مثل لص إلى مراحيض المنزل . وتخيله دون ريغوبيرتو : بصدرية ، وسترة ذات ذيلين ، وخف ، مقرصاً ووقوراً أمام مقعد الفضلات ، يستنشق بتلذذ طفولي الأبخرة المتعفنة التي ما إن تصل إلى تلافيف دماغه حتى تعيد إليه الحماس والنشاط ، نضارة الجسد والروح ، الاندفاع الذهني وسخاء الأفكار . وفكر : « كم أنا طبيعي بالمقارنة مع هؤلاء الأصيلين » . ولكنه لم يشعر بأنه أقل همة ولا أدنى مقاماً منهم . فالسعادة التي وجدها في ممارساته الصحية المنفردة ، ووجدها فوق ذلك في حب زوجته ، تبدو له تعويضاً كافياً عن طبيعية حالته . فما حاجته ، وهو يمتلك هذه السعادة ، إلى أن يكون غنياً ، مشهوراً ، غريب الأطوار ، عبقرياً ؟ الظلام المتواضع الذي كاتته حياته في عيون الآخرين ، هذه الحياة الروتينية لمدير شركة تأمين ، تخبئ شيئاً ، وهو واثق من ذلك ، قلة من أبناء جنسه هم الذين يستمتعون به ، أو يتصورون أنه موجود : إنه السعادة الممكنة . صحيح أنها عابرة وسرية ، بل وضئيلة ، ولكنها مؤكدة ، ملموسة ، ليلية ، وحية . إنه يحس بها الآن فيما حوله مثل هالة وعما قريب سيكون هو هي ، وستكون السعادة أيضاً هي زوجته معه ومعها ، متحدين في ثلوث عميق للثنين اللذين هما ، بفضل اللذة ، واحد أو أنهما بكلمة أدق ثلاثة . أترأه توصل بهذا إلى حل سر الثالوث ؟ وابتسم : ليس إلى هذا الحد أيها الخبيث . إنها حكمة ضئيلة وحسب ، مجرد ترياق عابر لمواجهة الإحباطات والمشاكل التي تتبل الحياة . وفكر : « الحمد لله أن الخيال يحث الحياة » .

وعندما اجتاز عتبة غرفة النوم ، تنهد مرتعشاً .

« ١١ »

بعيد الأكل

- سأخبرك بشيء لا تعرفينه يا خالتي - هتف ألفونسو وفي حدقتيه
بريق ضئيل مرتعش - . إنك موجودة في لوحة الصلاة .
كان وجهه مفتوناً وسعيداً ينتظر ، بما يشبه ابتسامة مأكرة ، أن تحزر
هي النية الخفية في ما قاله للتو .

«ها هو ذا يعود طفلاً من جديد» ، هذا ما فكرت به دونيا لوكريثيا
من شرقة خمولها الدافئة التي كانت فيها ، في منتصف الطريق ما بين الأرق
والنعاس . منذ لحظات قليلة كان رجلاً صغيراً دون أحكام مسبقة ، وبغريزة
صائبة ، يمتطيها مثل فارس ماهر . وها هو الآن يعود طفلاً سعيداً من
جديد ، يتسلى بلعبة الأحاجي مع أمه بالتبني . كان عارياً ، يشني ركبتيه
ويجلس على كعبيه عند نهاية السرير ولم تستطع هي أن تقاوم إغراء مد
يدها ووضعها فوق ذلك الفخذ الأشقر الذي بلون العسل ، ذي الزغب الذي لا
يكاد يكون مرئياً واللامع بالعرق . وفكرت : «لا بد أن آلهة الإغريق كانوا
هكذا ، وكذلك الأمور الصغار في اللوحات ، وغللمان الأميرات ، والجنين
الصغار في ألف ليلة وليلة ، و«السبينتريا» في كتاب سويتونيوس^(١) . غرست

(١) سويتونيوس Suetonio ، مؤرخ لاتيني . مؤلف كتاب سير بعنوان «حيوات الاثني عشر قيصراً» .

أصابها في هذا اللحم الفتى والإسفنجي وفكرت ، وهي تحس برعشة
متهتكة : « أنت سعيدة مثل ملكة يا لوكريشيا » .

ثم تمتت دون رغبة :

- ولكن لوحة الصالة للرسام زيزلو . إنها لوحة تجريدية أيها الصغير .

فأطلق الفونسو قهقهة .

- ولكنها أنت - قال مؤكداً . ثم احمر فجأة بحمرة الخجل حتى أذنيه ،

وكان تياراً شمسياً جارفاً قد سخنه - لقد اكتشفت الأمر هذا الصباح يا

خالتي . ولكنني لن أخبرك كيف ذلك ولو قتلتني .

وداهمته نوبة ضحك أخرى وهوى على وجهه فوق السرير . بقي على

تلك الحال طويلاً ، وجهه غارق في الوسادة ، مرتجفاً من القهقهة . « ما الذي

دخل في هذا الرأس الصغير المجنون » ، همست دونيا لوكريشيا وهي تشعث

شعره الناعم مثل رمل دقيق أو طحين الرز . « إنها فكرة بذينة أيها الخبيث ،

فقد اصطبغت بالحمرة » .

كانا قد أمضيا الليلة معاً للمرة الأولى ، منتهزين فرصة سفر دون

ريغوبيرتو في واحدة من رحلات عمله السريعة إلى الأقاليم . وكانت دونيا

لوكريشيا قد منحت إجازة لكل الخدم في الليلة السابقة ، بحيث بقيا وحدهما

في البيت . وفي العشية ، بعد أن تناولا الطعام معاً وشاهدا التلفزيون بانتظار

انصراف خوستينيانا والطاهية ، صعدا إلى غرفة النوم ومارسا الحب قبل أن

يناما . ثم مارساه مجدداً عندما استيقظا ، قبل وقت قصير ، مع أول أضواء

الفجر . وفيما وراء ستارة النافذة الخشبية التي لها لون الشيكولاتة ، كان

النهار ينمو بسرعة . وكانت قد بدأت تتعالى ضجة الناس والسيارات في

الشارع . وعما قريب سيرجع الخدم . تمطت دونيا لوكريشيا بخمول .

سيتناولان فطوراً وافراً ، مع عصير فواكه وبيض مقلي . وفي منتصف النهار

ستذهب هي وألفونسيتو إلى المطار لاستقبال زوجها . لم يكن دون ريفوبيرتو يطلب ذلك أبداً ، ولكنهما يعرفان أنه يبتهج لرؤيتهما يحييانه ملوحين بأيديهما المرفوعة وهو ينزل من الطائرة . وهما يمنحانه هذه المتعة كلما استطاعا ذلك .

وقال الطفل متأملاً دون أن يكون قد رفع وجهه عن الوسادة ،
- لقد أصبحت أعرف الآن ما الذي تعنيه لوحة تجريدية . إنها لوحة
بذينة! لم أكن أنتبه إلى ذلك يا خالتي .

مالت دونيا لوكريشيا ، ودنت منه . أسندت خدها على ظهره الصقيل ،
الخالى من أي قطرة شحم ، واللامع كالجليد ، حيث العمود الفقري الذي مثل
سلسلة جبلية دقيقة ، لا يكاد يرى . أغمضت عينيها وبدأ لها أنها تسمع
حركة الدم البطيئة المبكرة تحت هذه البشرة المرنة . ففكرت مبهورة :
« هذه هي الحياة نابضة ، الحياة معيشة » .

منذ أن مارست الحب مع الطفل أول مرة ، فقدت كل الهواجس وذلك
الإحساس بالذنب الذي كان يعذبها كثيراً في السابق . حدث ذلك في اليوم
التالي لواقعة رسالة تهديداته بالانتحار . وكان أمراً غير متوقع يخيل لدونيا
لوكريشيا ، حين تتذكره ، أنه مستحيل ، وأنه شيء لم تعشه وإنما حلمت به
أو قرأته . كان دون ريفوبيرتو قد أغلق على نفسه غرفة الحمام للتو من أجل
طقوس النظافة الليلية ، فنزلت هي بقميص النوم والروب البيتي لتتمنى
لألفونسيتو ليلة سعيدة ، مثلما كانت قد وعدته . قفز الطفل عن السرير
لاستقبالها . وبينما هو متعلق بعنقها ، بحث عن شفيتها وداعب نهديها
بحياء ، بينما هما يسمعان ، فوق رأسيهما ، ومثل خلفية موسيقية ، صوت
دون ريفوبيرتو يدندن دون انسجام أغنية من إحدى المسرحيات بتوافق مع
تدفق الماء في المغسلة . وفجأة أحست دونيا لوكريشيا بشيء مندفع ،

ذكري ، يلامس جسدها . وكانت النشوة التي لا يمكن كبحها أقوى من إحساسها بالخطر . فأسلمت نفسها للانزلاق على السرير في الوقت الذي راحت تجذب فيه الصغير نحوها ، دون خشونة ، وكأنها تخشى أن تكسره . فتحت الروب وأزاحت قميص النوم ، وراحت ترتب وضعه فوقها وتقوده بيد جزعة . كانت قد أحست به يحدّ ، يلهث ، يقبلها ، يتحرك ، بخراقة وهشاشة مثل حيوان صغير يتعلم المشي . وأحست به بعد قليل يتأوه ، وينتهي .

عندما رجعت إلى مخدعها لم يكن اغتسال دون ريغوبيرتو قد انتهى . كان قلب دونيا لوكريشيا طبعاً جامحاً ، عذواً أعمى . وكانت مذهولة من تهورها ومتلهفة - وهي لا تكاد تصدق ذلك - إلى عناق زوجها . لقد كان حبها له قد تضاعف . وكانت صورة الطفل هناك أيضاً ، في ذاكرتها ، تبعث فيها الرقة والحنان . هل من الممكن أن تكون قد مارست الحب معه وستمارسه الآن مع أبيه ؟ أجل ، إنه ممكن . لم تكن تشعر بالندم ولا بالخجل . ولم تكن تعتبر نفسها متهتكة كذلك . كانت تحس وكأن الدنيا تنثني عليها بوداعة . وتلبّسها إحساس غير مفهوم بالزهو . وسمعت دون ريغوبيرتو يقول لها فيما بعد : « لقد استمتعت هذه الليلة أكثر من ليلة أمس ومن أي ليلة أخرى . لا أعرف كيف أشكرك على السعادة التي تمنحيني إياها . » وهمست دونيا لوكريشيا مرتعشة : « وأنا كذلك يا حبي » .

منذ تلك الليلة أيقنت أن اللقاءات السرية مع الطفل تغني بطريقة غامضة وملتوية ، يصعب شرحها ، علاقتها الزوجية ، وتجعلها تنتفض وتتجدد . ولكن ، أي أخلاق هي هذه يا لوكريشيا ؟ ، كانت تتساءل مذعورة . كيف أمكن لك أن تتحولي هكذا بين ليلة وضحاها ، وأنت في هذه السن ؟ لم تكن قادرة على فهم ذلك ، ولكنها لم تبذل جهداً كذلك من أجل الفهم . كانت

تفضل الاستسلام لهذا الوضع المتناقض ، حيث أفعالها تتحدى وتنتهك مبادئها في سبيل ذلك التهييج الزخم والمجازف الذي تحول إلى سعادة بالنسبة إليها . وفي صباح أحد الأيام ، عندما فتحت عينيها ، خطرت لها هذه الجملة : « لقد اقتحمت السيادة » . أحست بالسعادة وبالانعتاق ، ولكنها لم تستطع أن تحدد مم اعتقت .

« ربما لا أشعر بأنني أقوم بعمل خبيث لأن فونتشيتو لا يشعر بذلك أيضاً » ، وفكرت وهي تداعب جسد الطفل بأطراف أصابعها . « الأمر بالنسبة له مجرد لعبة ، شقاوة . وهذا هو ما نفعله وحسب . إنه ليس عشيقتي . وكيف يمكن له أن يكون كذلك وهو في هذه السن ؟ » ماذا يكون إذن ؟ إنه أمورها ، قالت . إنه « السبينتريا » . إنه الطفل الذي كان رسامو عصر النهضة يضيفونه إلى مشاهد مخادع النوم لكي تبدو المعركة الغرامية أشد احتداماً على خلفية الطهارة تلك . وفكرت وهي تقبله من رقبتة بطرف شفيتها : « بفضلك أنت صار حبنا واستمتعنا أنا وريغوبيرتو أكبر » .

- يمكنني أن أوضح لك لماذا تمثل تلك اللوحة صورتك ، ولكنني أشعر بشيء لا أدري ما هو - همس الطفل وهو ما يزال مدفوناً في الوسادة - أتريدين أن أشرح لك ذلك يا خالتي ؟

- أجل ، أجل ، أرجوك - وكانت دونيا لوكريثيا تتفحص بورع الأوردة الدقيقة التي تظهر في أنحاء من بشرته كأنها جداول زرقاء . - كيف يمكن أن تكون صورتني في لوحة لا توجد فيها صور ، وإنما أشكال هندسية وألوان ؟

رفع الطفل وجهه الساخر :

- فكري وسترين . تذكرني كيف هي اللوحة وكيف أنت . لا أصدق أنك لم تكشفني الأمر . إنه سهل جداً! احزري وسأعطيك جائزة يا خالتي .

فسألت دونيا لوكريثيا وهي تزدداد تورطاً :
- ألم تنتبه إلا في هذا الصباح إلى أن هذه اللوحة هي صورتي ؟
وصفق لها الطفل :

- حامي ، حامي . إذا واصلت في هذا الطريق فستكتشفين الأمر الآن .
آي ، يا للخل يا خالتي !

أطلق قهقهة أخرى وعاد إلى الاختباء ما بين الملاءات . حط عصفور
على حافة النافذة وراح يزقزق . كان صوتاً صاراً وبهيجاً يطعن الصباح ويبدو
كأنه يحتفل بالدنيا ، بالحياة . وفكرت دونيا لوكريثيا : « معك حق في أن
تكون سعيداً . فالدنيا بديعة والحياة تستحق أن تعاش فيها يا أيها
المزقزق » .

- إنها صورتك السرية - غمغم ألفونسيتو . وكان يتهجد كل كلمة مع
توقفات سرية ، بحثاً عن تأثير مسرحي - صورة ما لا يعرفه ولا يراه أحد
فيك . إلا أنا فقط . آه ، وأبي بالطبع . إذا أنت لم تحزري الآن فلن تحزري
أبداً يا خالتي .

أخرج لها لسانه وأوماً باحتيال بينما هو يتفحصها بنظرته الزرقاء
السائلة تحت سطحها الزجاجي البري ، وكان يبدو لدونيا لوكريثيا أحياناً
أنها تلمح شيئاً خبيثاً ، مثل تلك الوحوش اللمسية التي تمضي في أعماق
الفراديس الأقيانوسية . تأجج خذاها . هل يلمح فونتشيتو حقاً إلى ما تخيلته
للتو ؟ أو بكلمة أخرى ، هل يفهم الطفل تلك الأشياء التي يلمح إليها ؟ لا
شك أنه يفهمها وسطياً فقط ، بصورة مشوهة ، غريزية ، ولا يتوصل إلى
حقيقتها . هل الطفولة هي هذا الخليط من الرذيلة والفضيلة ، من القداسة
والخطيئة ؟ وحاولت أن تتذكر إذا ما كانت هي ، في زمن ناء ، مثل
فونتشيتو ، نظيفة وقذرة في الوقت نفسه ، ولكنها لم تستطع . أراحت خذاها

من جديد على ظهر الطفل الأشقر وحسدته . آه ، من يمكنه أن يتصرف
دوماً بشبه الوعي الحيواني هذا الذي يداعبها ويحبها به ، دون أن يدينها أو
يدين نفسه! وتمنت له : « آمل ألا تتألم عندما تكبر أيها الصغير » .
ثم قالت بعد لحظة :

- أظن أنني قد حزرت . ولكنني لا أجرؤ على قول ذلك لك ، لأنه بذىء
جداً بالفعل يا ألفونسيتو .

فوافق الطفل بحياء وقد عاوده تورّد الخجل :
- إنه بذىء ، بالطبع . ومع أنه كذلك ، إلا أنه الحقيقة يا خالتي . وأنت
هكذا أيضاً ، وهذا ليس ذنبى . ولكن ، ليس مهماً ما دام لن يعرف ذلك
أحد ، أليس كذلك ؟

وأضاف دون وقفة انتقاليه ، في واحدة من تلك التحولات المفاجئة في
النبرة وفي الموضوع التي يبدو فيها وكأنه يصعد أو ينزل دفعة واحدة عدة
درجات من سلم الحياة :

- ألا يكون الوقت قد حان للذهاب إلى المطار من أجل إحضار أبي ؟
سيحزن كثيراً إذا نحن لم نذهب .

ما حدث بينهما لم يكن له أدنى تأثير - أو أنها على الأقل لم تلاحظ
ذلك - على علاقة ألفونسو بدون ريغوبيرتو ؛ وكان يبدو لدونيا لوكريشيا من
خلال مظاهر الألفة ، أن الطفل يحب أباه مثلما كان يحبه من قبل وربما
أكثر . ولم يكن يبدي أمامه كذلك أدنى قدر من الضيق أو تأنيب الضمير .
وقالت لنفسها : « لا يمكن أن تكون الأمور بهذه البساطة وأن ينتهي كل
شيء على خير » . ولكن الأمور كانت تسير على ما يرام حتى الآن على
الأقل . كم من الوقت سيستمر هذا الوهم الهارموني ؟ وعادت تقول لنفسها
مرة أخرى إنه إذا ما تصرفت بذكاء وحذر فلن يحدث ما يمكن له أن يمزق

الوهم المتجسد الذي تحولت إليه حياتها . وكانت واثقة فوق ذلك من أنه في حال استمرار هذا الوضع المعقد ، فإن دون ريغوبيرتو سيكون المستفيد السعيد من سعادتها . ولكن ، ومثلما يحدث كلما فكرت في الأمر ، كانت هواجسها تلقي بظل قاتم على هذه اليوتوبيا : الأمور لا تجري على ما يرام إلا في السينما وفي الروايات يا امرأة . كوني واقعية ؛ فعاجلاً أو آجلاً سينتهي كل شيء إلى أسوأ حال . فالواقع لم يكن في يوم من الأيام كاملاً مثل الخيال يا لوكريثيا .

- لا ، مازال لدينا متسع من الوقت يا حبي . هناك ساعتان على موعد وصول الطائرة من بيورا . هذا إذا لم تتأخر .

- سأنام قليلاً إذن ، كم أشعر بالوهن - ثناء ب الطفل . ومال على جانبه باحثاً عن دفء جسد دونيا لوكريثيا ، وأسند رأسه إلى كتفها . ثم خرخر بعد لحظة بصوت منطفيء : - هل تظنين أن أبي سيشتري لي الدراجة النارية التي طلبتها منه إذا ما نلت جائزة التفوق في نهاية العام ؟

فردت عليه وهي تضمه بحساسية وتهدل له كما لطفل حديث الولادة :

- أجل سيشتريها لك . وإذا هو لم يشتريها ، فسأفعل أنا ذلك ؛ هذا

وعد .

وبينما فونتشييتو ينام متنفساً بانتظام - كان بإمكانها أن تشعر بضربات قلبه المتناسقة مثل أصداء في جسدها - ، بقيت دونيا لوكريثيا جامدة دون حراك كيلا توقظه ، غارقة في وسن ساكن . وكان ذهنها المنفلت يجول ما بين جوقات من الصور . ولكن إحدى تلك الصور كانت تكتسب من وقت لآخر قوة وتثبت في هالة وعيها الإيحائية : إنها لوحة الصلاة . ما قاله الطفل يقلقها بعض الشيء ويملؤها بغم سري ، إذ أنها تلمح في تلك المخيلة الطفولية أعماقاً وبيلة ودقة مثيرة للريبة .

فيما بعد ، وبعد أن استيقظا وتناولوا الفطور ، وبينما كان ألفونسيتو يستحم ، نزلت إلى الصالة ووقفت تتأمل لوحة زيزلو طويلاً . كانت تشعر وكأنها لم ترها من قبل ، وكما لو أن اللوحة ، مثل أفعى أو فراشة ، قد بدلت مظهرها وكيانها . وفكرت مشوشة : « هذا الطفل شيء جدي » . وفي تلك الليلة بالذات ، بعد إحضار دون ريغوبيرتو من المطار ، وبعد الاستماع إلى حديثه عن رحلته ، فتحوا الهدايا التي أحضرها لها وللطفل واحتفلوا بها (وهو يحضر لهما هدايا كلما سافر) . كان قد أحضر أصنافاً من الحلوى وقبعتي قش فاخرتين من كاتاكاوس . وبعد ذلك تناول الثلاثة عشاءهم معاً كأسرة سعيدة .

انسحب الزوجان إلى مخدعهما في وقت مبكر . وكانت اغتسلات دون ريغوبيرتو أقصر من المعتاد . وعندما التقيا مجدداً في الفراش ، تعانق الزوجان بحرارة ، وكأنهما يلتقيان بعد فراق طويل جداً (فراقهما لم يكد يتجاوز ثلاثة نهارات وليلتين) . إنهما هكذا دوماً ، مذ تزوجا . ولكن ، بعد تبادل الكلمات والمداعبات التمهيدية في الظلام ، وعندما همس دون ريغوبيرتو الوفي للطقوس الليلة التخيلية : « ألن تسأليني من أكون ؟ » سمع في هذه المرة جواباً يتعدى الاتفاق الضمني : « لا . من الأفضل أن تسألني أنت » . كانت هناك وقفة ذهول ، مثل تجمد لقطة في فيلم . ولكن ، بعد ثوان من ذلك ، فهم دون ريغوبيرتو ، رجل الطقوس الأمر ، وسألها : « من ، من أنت يا سمائي ؟ » . « أنا شخصية لوحة الصالة... اللوحة التجريدية » ، ردت عليه . وكانت هناك وقفة أخرى ، وضحكة خافتة ما بين ساخطة وخائبة ، وصمت طويل مكهرب . وبدأ هو يوبخها : « ليس هذا وقت لل... » . فقاطعته دونيا لوكريثا وهي تغلق فمه بشفتيها : « لستُ أمزح . إنني تلك اللوحة ، ولستُ أدري كيف لم تنتبه إلى ذلك حتى الآن . » فتحمس

هو ، واستعاد حيويته ، وتحرك : « ساعديني يا حبي . اشرح لي . أريد أن أفهم . » وشرحت له وفهم .

وبعد مرور وقت طويل ، عندما كانا منهوكين وسعيدين ومستعدين للراحة ، بعد أن تحدثا وضحكا ، قبل دون ريفوبيرتو يد زوجته متأثراً :

- كم تبدلت يا لوكريشيا . لم أعد أحبك الآن من كل روعي وحسب ، بل صرت أقدرك أيضاً . وأنا واثق من أنني سأتعلم الكثير منك .
فقلت وهي تداعبه :

- في الأربعين يمكن تعلم أشياء كثيرة . أشعر أحياناً ، الآن مثلاً ، بأنني أولد من جديد يا ريفوبيرتو . وأنني لن أموت أبداً .
أهذه هي السيادة ؟

« ١٢ »

متاهة حب^(١)

في البدء لن تراني ولن تفهم ، ولكن عليك التحلي بالصبر ومواصلة النظر . انظر بمثابرة ودون أحكام مسبقة... بحرية وبرغبة . انظر بمخيلة منطلقة وبعضو مهياً سلفاً - وحبذا لو كان مثل رمح - . فالدخول هناك يتم مثلما تدخل مستجدة إلى الدير أو مثلما يدخل العشيق إلى مغارة المحبوبة : بصورة حاسمة ودون حسابات بانسة ، مانحاً كل شيء ومطالباً بكل شيء ، وبيقين في أعماق الروح بأن ذلك الدخول أبدي . بهذا الشرط وحده يبدأ سطح القتامات البنفسجية والليلكية بالتحرك شيئاً فشيئاً ، يتموج ، يكتسي مغزى ، وينكشف مثلما هو في الحقيقة : إنه متاهة حب .

الشكل الهندسي للحزام الأوسط ، في منتصف اللوحة بالضبط ، هذا الظل المسطح الذي يشبه حيواناً سميك الجلد ذا ثلاث قوائم هو مذبح ، منصة قربان ، أو أنه ديكور مسرحي إذا ما كنتَ ذا روح تتحسس من الرموز الدينية . لقد انتهى للتو أداء طقس مثير ، ارتدادات لذيدة وقاسية . وما تراه هي بقاياها ونتائجه . أنا أعرف ذلك لأنني كنت الأضحية السعيدة ؛

(١) راجع اللوحة رقم (٥)

وكنْتُ كذلك الملهمة ، الممثلة . هذه اللطخات الحمراء على قوائم الكائن الطوفاني هي دمي ومنيك يسيلان ويتجمدان . أجل يا حياتي ، ذاك الشيء القابع فوق حجر الطقوس (أو إذا أنت شئت ، فوق الديكور ما قبل الإسباني)^(٢) ، هذا الشكل اللزج من قروح ذات لون خبازي وأغشية رقيقة ، من تجويفات سوداء وغدد تتقيح لوناً رمادياً ، هي أنا بالذات . افهمني : إنها أنا مرئية من الداخل ومن أسفل ، عندما تكلّسني وتعصرني . إنها أنا ، أثور بركاناً وأسيل تحت نظرتك المتيقظة الداعرة كذكر أقام احتفاله الديني وهو الآن يتأمل ويفلسف .

لأنك أنت موجود أيضاً أيها الغالي . تنظر إلي وكأنك تشرحني ، إنك عينان تنظران لتريا وعقل خيميائي يدرس ويحلل وصفات اللذة المتألقة . فمن هو إلى اليسار ، منتصباً وراء قشرة بنية لامعة ، من يضع هلالين على رأسه ، ويتزين بعباءة من ريش حي ، ويتنكر في طوطم ، هذا الشكل ذي الزوائد والزغب الأشقر الضارب إلى الحمرة ، هذا الذي يدير ظهره ويتفحصني ، من يمكن له أن يكون إلا أنت ؟ لقد نهضت للتو وانقلبت إلى متفرج . وكنْتُ قبل لحظة أعمى وجائياً بين فخذي ، تشعل نيرانني مثل خادم وضع ونشيط . أنت تعرف الآن كيف أنا . ويروق لك الآن أن تصوغني في نظرية .

أنحن مستهتران ؟ إننا بالأحرى تامان وحران... دنيويان إلى أقصى الحدود . لقد سلخوا جلدنا ولينوا عظامنا ، كشفوا أحشاءنا وغضاريفنا ، وعرضوا للضوء كل ما ظهر ونما وتعرق وأفرز في القداس أو الطقس الغرامي الذي قدمناه معاً . لقد خلفونا دون أسرار يا حبي . هذه هي أنا يا عبدي

(٢) يبدو واضحاً ما أنها تشير إلى طقوس القرايين البشرية التي كانت سائدة في بعض الحضارات الأمريكية ما قبل الكولومبية .

وسيدي ، قربانك . إنني مشقوقة من أعلى إلى أسفل بسكين الحب مثل
يمامة . مشقوقة ونابضة أنا . استمناء بطيء أنا . دفقة رحيق أنا . متاهة
وحسن أنا ، مبيض سحري أنا ، دم وندى فجر : أنا . هذا هو وجهي بالنسبة
إليك في ساعة الحواس . هذه هي أنا عندما أنزع ، من أجلك ، جلدي يومياً
وفي أيام الأعياد . وربما هذه هي روحي . إليك ومنك .

لقد توقف الزمن بالطبع . وهناك لا نشيخ ولا نموت . سنستمتع إلى
الأبد في ضوء الغسق الخافت هذا الذي يهتكه الليل ، مضامين بقمر جعله
سُكرنا ثلاثة . القمر الحقيقي هو الذي في الوسط ، داكن مثل جناح غراب ؛
أما القمران الآخران فيحرسانه ، ولهما لون النبيذ العكر ، وهما قمران
خياليان .

لقد ألغيت كذلك الأحاسيس الغيرية ، والماورائية ، والتاريخ ، والتفكير
الحيادي ، ودوافع وأعمال الخير ، والتضامن مع الأجناس ، والمثالية المدنية ،
والتعاطف مع المثلث ؛ لقد محي جميع البشر الذين هم سواك وسواي . لقد
اختفى كل ما كان يمكن له أن يلهينا أو يُفقرنا في ساعة الأنانية العليا التي
هي ساعة الحب . ليس هناك ما يكبحنا أو يردعنا ، مثل المسخ أو الإله .

هذا الحيز الثلاثي - ثلاث قوائم ، ثلاثة أقمار ، ثلاث مساحات ، ثلاث
نوافذ وثلاثة ألوان مهيمنة - هو وطن الغريزة الصافية والمخيلة التي تخدمه ،
هكذا مثلما خدمني لسانك الأفعواني ولعابك العذب واستخدماني . لقد فقدنا
الكنية والاسم ، الوجه والشعر ، المظهر المحترم والحقوق المدنية . ولكننا
كسبنا السحر والسر واللذة الجسدية . كنا امرأة ورجل وصرنا الآن قذفاً ،
وشهوة ، وفكرة ثابتة . لقد تحولنا إلى مقدسين وهاجسين .

معرفتنا المتبادلة تامة . فأنت أنا وأنت ، وأنا أنا وأنت . شيء متقن
الكمال مثل سنونوة أو مثل قانون الجاذبية . الضلال المعيب - وأقول هذا

بكلمات لا نؤمن بها ونحتقرها كلانا - يتمثل في أبراج المراقبة الاستعراضية
الثلاثة هذه التي في الزاوية العليا اليسارية . إنها عيوننا ، التأمل الذي
نمارسه بحماس شديد - مثلما تفعل أنت الآن - ، التعري الجوهري الذي
يطلبه كل منا من الآخر في الحفلة الغرامية وهذا الاندماج الذي لا يمكن
التعبير عنه إلا بتريض اللغة : أنا أسلمك نفسي لي ، نمصكني .
دعك الآن من النظر . أغمض الآن عينيك . ودون أن تفتحهما ، انظر
إلي الآن أنظر إليك مثلما مثلونا في هذه اللوحة التي ينظر إليها كثيرون ولا
يراها إلا قلة . الآن تعرف أننا ، حتى قبل أن نتعارف ، كنا متحابين
ومتزوجين ، فأحدهم ، وفي يده ريشة ، استبق المجد المريع الذي ستحولنا
إليه السعادة التي استطعنا ابتداعها في كل يوم وكل ليلة غد .

« ١٣ »

الكلمات البديئة

- هل الخالة غير موجودة ؟ - سأل فوتتشيتو بخيبة أمل .

- لن تتأخر في المجيء - رد عليه دون ريغويرتو وهو يغلق بتعجل كتاب « لوحات التعري » للسير كنيث كلارك الذي كان على ركبتيه . ويعود بحركة مفاجئة فظة إلى ليما ، إلى بيته ، إلى مكتبه ، منتقلاً من الأبخرة الرطبة والأنشوية في ازدحام « الحمام التركي » للرسم إنغر الذي كان مستغرقاً فيه . وأضاف : - لقد ذهبت للعب البريدج مع صديقاتها . أدخل ، أدخل يا فوتتشيتو . فلنتحدث قليلاً .

ابتسم له الطفل موافقاً . دخل وجلس على حافة المقعد الإنكليزي الضخم والمريح ذي الجلد الزيتوني ، تحت الثلاثة والعشرين مجلداً من مجموعة « Les maîtres de l'amour » « سادة الحب » ، التي أشرف عليها وقدم لها غيوم أبولينير .

- حدثني عن مدرسة سانتا ماريا - شجعه أبوه ، بينما كان في الوقت نفسه يخبئ الكتاب بجسده وهو ماض لإعادته إلى الخزانة ذات الباب الزجاجي والقفل ، حيث يحتفظ بكنوزه الايروتيكية ، وتابع قائلاً : - هل تسير الدراسة على ما يرام ؟ ألا تجد صعوبة في اللغة الإنكليزية ؟

الدروس تمضي على خير ما يرام والأساتذة جيدون جداً يا بابا . إنه يفهم كل شيء ، ويتبادل أحاديث مطولة بالإنكليزية مع الأب ماك كي ؛ وهو واثق من أنه سيحقق المرتبة الأولى في صفه هذه السنة أيضاً . وربما سيتمنحه جائزة الامتياز .

ابتسم له دون ريغويرتو راضياً . الحقيقة أن هذا الصبي لا يتوانى عن تقديم السعادات له . إنه ابن نموذجي ؛ تلميذ جيد ، وديع ، حنون . لقد حالفه الحظ به .

- أتريد كوكا كولا ؟ - سأله الأب . وكان قد انتهى من سكب قدر إصبعين من الويسكي لنفسه وأضاف إليه الثلج . قدم إلى ألفونسو كأس المرطب وجلس إلى جانبه - أريد أن أقول لك شيئاً يا بني . إنني سعيد بك جداً ويمكنك أن تعتبر أنك قد حصلت على الدراجة النارية التي طلبتها مني . ستحصل عليها الأسبوع القادم .

شعّت عينا الطفل . وبدت على وجهه ابتسامة فرح عريضة .

- شكراً يا بابا - عانقه وقبله من خده - الدراجة النارية التي طالما رغبت بها! يا للروعة يا بابا!

أبعده دون ريغويرتو عنه وهو يضحك . رتب له شعره المشعث بمداعة وقورة . وقال :

- عليك أن تشكر لوكريثيا . فهي التي ألحت لكي أشتري لك الدراجة الآن بالذات ، دون الانتظار حتى الامتحانات .
فهتف الطفل :

- كنت أعرف ذلك . إنها طيبة جداً معي . بل إنها أطيب على ما أظن مما كانته أُمي .

- خالتك تحبك كثيراً يا صغيري .

فأكد الطفل على الفور بحمية :

- وأنا أيضاً أحبها . وكيف لا أحبها وهي أفضل خالة في الدنيا!
شرب دون ريغوبيرتو الويسكي وتذوقه ، نار لذيدة جابت لسانه ،
حنجرته ونزلت الآن ما بين أضلاعه . وارتجل : «لطيف» . لمن جاء ابنه
جميلاً إلى هذا الحد ؟ وجهه يبدو محاطاً بهالة مشعة وينضج بالطزاجة
والصحة . الصحيح أنه لم يأت له . ولا لأمه كذلك ، لأن إيلويسا ، رغم
أنها كانت جذابة وذات مظهر جيد ، إلا أنها لم تمتلك على الإطلاق هذه
الدقة في التقاطيع ، ولا عينين يمثل هذه الزرقة ولا شفافية في البشرة
مشابهة ولا تجعدات الذهب الصافي في الشعر هذه . إنه ملاك كرويين ،
برعم ورد ، ملاك في رسم يمثل المناولة الأولى . سيكون من الأفضل له
عندما يكبر أن يقبح قليلاً : فالنساء لا يروقهن الرجال الذين لهم وجوه
الدمى .

وأضاف قائلاً بعد لحظة :

- أنت لا تعرف كم يسعدني أن تكون على ونام مع لوكريثيا . لقد كان
هذا الأمر يخيفني كثيراً عندما تزوجنا ، ويمكنني الآن أن أخبرك بذلك .
كنت أخشى ألا يميل كل منكما إلى الآخر ، وأن لا تتقبلها أنت . لو حدث
ذلك لكان كارثة كبيرة لنا نحن الثلاثة . ولوكريثيا أيضاً كانت خائفة جداً .
أما الآن ، عندما أرى كيف تتفاهمان ، فإنني أضحك من تلك المخاوف .
فأنتما متحابان إلى حد أنني أشعر في بعض اللحظات بالغيرة ، إذ يبدو لي أن
خالتك تحبك أكثر مما تحبني وأنت أنت أيضاً تفضلها على أبيك .

ضحك ألفونسو مقهقهةً وهو يضرب كفاً بكف ، وحاكاه دون ريغوبيرتو
مبتهجاً بانفجار طيب مزاج ابنه . سُمع مواء قط من بعيد . مرت سيارة في
الشارع ومذياعها يلعلع بأعلى صوت ، وسُمعت لشوان أنغام بوق وماراكا في

لحن تروبيكالي . ثم سُمع صوت خوستينيانا تترنم في غرفة الغسل بينما هي تُشغل الغسالة .

وفجأة سأل الطفل أباه ،

- ما معنى رعشة الجماع يا بابا ؟

وداهمت دون ريغوبيرتو نوبة سعال . ثم تنحنح بينما هو يفكر : ماذا يجب أن أرد عليه ؟ حاول أن يتخذ وضعاً طبيعياً وبقي دون ابتسام . وأوضح بحذر :

- حسن ، ليست كلمة بذينة . إنها ليست كذلك بالتأكيد . إنها كلمة مرتبطة بالحياة الجنسية ، باللذة . وربما يمكن القول إنها ذروة اللذة الجسدية . وهو شيء لا يعرفه البشر فقط ، وإنما أجناس حيوانية كثيرة . سيحدثونك عن ذلك في دروس البيولوجيا بكل تأكيد . ولكن عليك ألا تفكر بأنها بذاءة . أين وجدت هذه الكلمة يا صغيري ؟

- سمعتها من خالتي - قال فونتشيتو . ثم قام بحركة خبيثة جداً ، رافعاً إصبعه إلى شفتيه كإيماءة تواطؤ ، وأضاف : - تظاهرتُ بأنني أعرف معناها . فلا تخبرها بأنك شرحتها لي يا بابا .

- لا ، لن أخبرها - تلعثم دون ريغوبيرتو . وتناول رشفة أخرى من الويسكي وأمعن النظر في ألقونسو وهو مبهور . ماذا هناك في هذا الرأس الصغير الأشقر ، وراء هذه الجبهة اللامعة ؟ من يمكنه أن يعرف ذلك . ألا يقولون إن روح الطفل هي بشر بلا قرار ؟ وفكر : « يجب أن أغير موضوع الحديث » . ولكن داء الفضول أو جاذبية الخطر الغريزية كانت أقوى ، فسأل كمن هو غير راغب في الأمر : - أسمعت هذه الكلمة من خالتك حقاً ؟ هل أنت متأكد ؟

هز الطفل رأسه عدة مرات ، بالتعبير ما بين الباسم والخبيث نفسه . كان خداه متوردين بالحمرة وعيناه تعكسان الظرافة .

- لقد قالت لي إنها بلغت رعشة جماع لذيدة - أوضح بصوت بلبل مترنم .

في هذه المرة أفلت الويسكي من يدي دون ريغوبيرتو ؛ وبينما هو مشلول من وقع المفاجأة ، رأى الكأس يتدحرج على سجادة مكتبه ذات النقوش العربية . سارع الطفل إلى التقاط الكأس . وأعاده متمماً :
- لحسن الحظ أنه كان فارغاً تقريباً . أتريدني أن أعد لك كأساً آخر يا بابا ؟ أنا أعرف كيف تحبه ، فقد رأيت كيف تعدّه لك خالتي .

قال دون ريغوبيرتو « لا » بحركة من رأسه . هل سمع جيداً ؟ أجل ، بالطبع : فلهذا السبب له أذنان كبيرتان . لكي يسمع الأشياء جيداً . بدأ دماغه يفرقع مثل محرقة . لقد مضت هذه المحادثة بعيداً جداً ولا بد من وقفها دفعة واحدة وإلى الأبد ، تحت طائلة حدوث شيء خطير لا تحمد عقباه . وتخيل للحظة قلعة بديعة مشيدة من أوراق اللعب تتهاوى . وكان يعي تماماً ما يتوجب عليه عمله . يكفي ، هذا يكفي ، فلنتحدث في أمر آخر . ولكن غناء حوريات الأعماق كان في هذه المرة أيضاً أقوى من تعقله وحصافته .

- أي تلفيقات هذه يا فونتشيتو - كان يتكلم ببطء ، ولكن صوته كان يرتعش بالرغم من ذلك - . كيف يمكن أن تكون قد سمعت من خالتك مثل هذا الشيء . هذا غير ممكن يا بني .

احتج الطفل غاضباً وهو يرفع إحدى يديه عالياً :

- بلى يا بابا . لقد سمعته بالطبع . لقد قالت هي لي . يوم أمس بالذات ، في المساء . أعطيك كلمتي . ولماذا سأكذب عليك ؟ وهل كذبت أنا يوماً ؟

- لا ، لا ، معك حق . أنت تقول الصدق دائماً .

لم يستطع التحكم بالقلق الذي سيطر عليه مثل حمى . كان الضيق دبوراً
بليداً يصطدم بوجهه ، بذراعيه ، ولا يستطيع هو إبعاده أو تجنبه . نهض
واقفاً ، ومضى بخطوات بطيئة ليسكب جرعة أخرى من الويسكي ، وهو أمر
فريد ، إذ أنه لم يكن يشرب أكثر من كأس واحدة قبل العشاء . وعندما
رجع إلى مقعده ، التقى بعيني فوتتشيتو الزرقاوين : إنهما تواصلان حركتهما
بالتحول عبر المكتب بصلايتهما المعهودة . ابتسما له ، وبذل هو جهداً ،
وابتسم له أيضاً .

« إحم ، إحم » ، تنحجح دون ريغوبيرتو بعد ثوان من الصمت البغيض .
لم يدر ما يقول . هل من الممكن أن تكون لوكريثيا قد أسرت له بأشياء من
هذا النوع ، وأنها تخبر الطفل بما يفعلانه ليلاً ؟ هذا غير ممكن بالتأكيد ،
يا للحماقة . إنها تخيلات فوتتشيتو ، وهو أمر شائع في مثل هذه السن : إنه
يكتشف الخبث ، يتفتح فيه الفضول الجنسي ، والليبيدو الوليد يوحى إليه
بتخيلات لكي يستثير محادثات حول المحرمات الفاتنة . من الأفضل نسيان
كل ذلك والتخلص من هذه اللحظة السيئة بالتحول إلى أمور عادية أخرى .
سأله :

- أليس لديك واجبات مدرسية للغد ؟

ورد الطفل :

- لقد أنجزتها . لدي واجب واحد فقط يا بابا . إنه موضوع إنشاء

حر .

وألح دون ريغوبيرتو :

- آه ، هكذا ؟ وأي موضوع اخترت ؟

وعاد وجه الطفل يتوقد بسعادة ساذجة . أحس دون ريغوبيرتو فجأة

بخوف شديد . ما الذي يحدث ؟ ما الذي سيحدث ؟

- اخترتُ موضوعاً عنها بالطبع يا بابا ، وعن أي شيء آخر سأحدث
سواها . - وكان فونتشيتو يضرب كفاً بكف وهو يضيف : - وضعتُ له
كعنوان «امتداح الخالة» . ما رأيك ؟

- جيد جداً ، إنه عنوان جيد - أجابه دون ريغوبيرتو . ثم أضاف وهو
يضحك ضحكة زائفة ، ودون أن يفكر تقريباً : - يبدو مثل عنوان رواية
إيروتيكية قصيرة .

فاستفسر الطفل بجدية كبيرة :

- ما معنى إيروتيكية ؟

وأوضح له دون ريغوبيرتو وهو يشرب كأسه في رشقات دون انتباه :
- إنه تعبير مرتبط بالحب الجسدي . هناك بعض الكلمات ، مثل هذه
الكلمة ، لا تكتسب معناها إلا مع الزمن ، وبفضل التجربة ، وهو أمر أهم من
التعريفات . كل هذا سيأتي شيئاً فشيئاً ؛ ليس هناك أي مبرر لأن تستعجل يا
فونتشيتو .

- مثلما تريد يا بابا - وافق الطفل وهو يفتح عينيه ويغمضهما : كانت
رموشه الهائلة تظلل جفونه بتقزح بنفسجي .

- هل تعرف أنني أرغب في قراءة هذا الموضوع عن «امتداح الخالة» ؟
وتحمس الطفل :

- بالطبع يا بابا - ثم نهض قافزاً وانطلق يركض - ، وهكذا يمكنك أن
تصححه لي إذا كان هناك خطأ ما .

وخلال اللحظات القصيرة التي غابها فونتشيتو ، أحس دون ريغوبيرتو
بتزايد الغم . ربما أكثر من الويسكي ؟ لا ، ما هذه الفكرة . هل يكون
هذا الضيق في الصدغين إشارة إلى أنني سأمرض ؟ هناك في المكتب عدد من
المصابين بالزكام . لا ، ليس هذا هو الأمر . ما هو إذن ؟ وتذكر عبارة

فاوست تلك التي أثرت فيه كثيراً في صباه : « أحبُّ من يرغب في المستحيل » . وقد كان يرغب في أن تكون شعاره في الحياة ، وكان يحس بطريقة ما ، وإن يكن بصورة سرية ، أنه قد بلغ ذلك المثل الأعلى . لماذا يراوده الآن هاجس مُقلق بأن هناك هوة تنفتح تحت قدميه ؟ أي نوع من الخطر يتهدهده ؟ كيف ؟ أين ؟ وفكر : « من المستحيل تماماً أن يكون فوتتشييتو قد سمع لوكريشيا تقول «لقد بلغت رعشة جماع لذيدة» . داهمته نوبة ضحك فضحك ، ولكن دون أدنى قدر من السعادة ، إذ أبدى وجهه حركة محزنة أعادها إليه زجاج خزانة الكتب تكشيرة شهوانية . ها هو ذا ألفونسو قد رجع . كان يحمل دفترأ في يده . قدّمه إليه دون أن يقول شيئاً وهو ينظر إلى عينيه بثبات ، بتلك النظرة الزرقاء شديدة الهدوء والسذاجة التي تقول عنها لوكريشيا إنها « تجعل الناس يشعرون بأنهم قدرون » .

وضع دون ريغوبيرتو نظارته وأضاء مصباح الركن . بدأ يقرأ بصوت عالٍ الحروف الواضحة المكتوبة بحبر أسود ، ولكنه صمت عند منتصف الجملة الأولى . وواصل القراءة بصمت ، محرّكا شفّتيه حركات خفيفة ومكثراً من تحريك رموشه . وفجأة توقفت شفّته عن الحركة . وأخذتا بالانفتاح ، حتى كستا وجهه بملامح البلاهة والحمق . تدلى خيط لعاب من بين أسنانه ولوث ياقة سترته ولكنه لم ينتبه إليه كما يبدو لأنه لم يمسه . كانت عيناه تتحركان من اليسار إلى اليمين ، بسرعة أحياناً ، وببطء في أحيان أخرى ، وقد تتراجعان في بعض اللحظات وكأنهما لم تفهما جيداً أو أنهما لم تتقبلا أن يكون ما قرأناه مكتوباً هناك فعلاً . وخلال الوقت الذي دامته القراءة ، القراءة اللانهائية ، لم ترتفع عينا دون ريغوبيرتو مرة واحدة عن الدفتر لتتنظرا إلى الطفل الذي ما يزال هناك دون شك ، راصداً ردود فعله ، منتظراً أن ينتهي من القراءة وأن يقول ويفعل ما يجب عليه أن يقوله ويفعله . ماذا

يتوجب عليه أن يقول ؟ ماذا يتوجب عليه أن يفعل ؟ أحس دون ريغوبيرتو
بيديه مبللتين . وانزلت قطرات من العرق عن جبهته إلى الدفتر ومددت
الحبر في بقع غير منتظمة . وبينما هو يبتلع لعبه ، فكر بصواب : « حب
المستحيل له ثمن يجب دفعه عاجلاً أو آجلاً » .

بذل أقصى جهد وأغلق الدفتر ونظر . أجل ، ها هو ذا فونتشيتو ،
يتأمله بوجهه السعيد الجميل . « هكذا يجب أن يكون وجه الشيطان » ، فكر
بذلك وهو يرفع الكأس الفارغة إلى فمه ، بحثاً عن رشفة . ولكن اصطكاك
الكأس بأسنانه نبهه إلى أن رشفة يده قوية جداً .

- ما معنى هذا يا ألفونسو ؟ - قال متلعثماً . وكان يحس بألم في
أضراسه ، في لسانه ، في فكه . ولم يتعرف على صوته .

- أي شيء يا بابا ؟ - وكان ينظر إلى أبيه وكأنه لا يفهم ما جرى له .
- ما الذي تعنيه هذه... التخيلات - تلعثم من الاضطراب المرعب الذي
يعذب روحه - . هل أصابك الجنون يا ولد ؟ كيف أمكن لك أن تخلق مثل
هذه القذارات الفاحشة ؟

صمت لأنه لم يعرف ما يقول ولأنه كان يشعر بالاستياء والذهول مما
قاله . بدأ وجه الطفل ينطفئ ، يكتسي بالحزن . كان ينظر إليه دون أن
يفهم ، وبشيء من الألم في الحدقتين ومن التشوش أيضاً ، ولكن دون أي
ظل من الخوف . وأخيراً ، بعد بضع ثوان ، سمعه دون ريغوبيرتو يقول ما
كان ينتظر سماعه وسط الرعب الذي جمّد قلبه :

- أيّ اختلاقات يا بابا . كل ما أرويه هو صحيح ، وكله جرى مثلاً
أرويه .

في هذه اللحظة ، وفي تزامن خُيل إليه أن القدر هو لذي حسمه أو
الآلهة ، سمع دون ريغوبيرتو الباب الخارجي يُفتح ، وصوت دونيا لوكريشيا

توجه تحية المساء لكبير الخدم . واستطاع أن يفكر بأن العالم الليلي الغني ،
عالم الأحلام والرغبات الطليقة الذي شيده بجهود كبيرة قد انفجر مثل فقاعة
صابون . وفجأة ، تمت مخيلته المهانة ، بقنوط ، أن يتحول : إنه متفرد ،
عفيف ، متخلص من الشهوات ، ويمنأى عن كل أبالسة الجسد والجنس .
أجل ، أجل ، هذا هو . إنه الناسك ، القديس ، الراهب ، الملاك ، رئيس
الملائكة الذي ينفخ البوق السماوي وينزل إلى البستان ليحمل البشارة إلى
الفتيات القديسات .

- مرحباً ، مرحباً أيها السيد ، وأيها السيد الصغير - غردت دونيا
لوكريشيا من عتبة غرفة المكتب .
ووجهت يدها الثلجية قبلات طائرة إلى الأب والابن .

« ١٤ »

الشباب الوردي^(١)

حر الظهيرة جعلني أغفو فلم أشعر بمجيئه . ولكنني فتحت عيني ووجدته هناك ، عند قدمي ، وسط هالة نور وردية . أكان هناك حقاً ؟ أجل ، فأنا لم أحلم بذلك . لا بد أنه دخل من الباب الخلفي الذي يبقيه أبواي مفتوحاً ، أو ربما قفز عن سور الحديقة ، وهو سور يمكن لأي صبي أن يقفز عنه دون صعوبة .

من هو ؟ لست أدري ، ولكنني متأكدة من أنه كان هنا ، في هذا الممر نفسه ، جاثياً عند قدمي . لقد رأيته وسمعته . وقد غادر للتو . أم أنه من الأفضل أن أقول إنه قد تلاشى ؟ أجل : لقد جثا عند قدمي . لست أدري لماذا ركع ، ولكنه لم يفعل ذلك للسخرية مني . فمنذ البدء عاملني برقة وتوقير بالغبين ، وأبدى الكثير من الاحترام والتذلل ، فداهمني القلق لرؤية غريب ، على مقربة مني ، يتبخر مثلما يتبخر الندى تحت الشمس . وكيف يمكن ألا أتوجس خيفة وأنا أجد نفسي على انفراد مع غريب ؟ مع شخص لا أعرف فوق ذلك كيف دخل إلى حديقة بيتي ؟ لست أفهم ما حدث . ولكن

(٤) راجع اللوحة رقم (٦)

الشاب كان هنا طوال الوقت ، يحدثني وكأنه يحدث امرأة مهمة وليس الفتاة المتواضعة التي هي أنا ، وأحسست بأنني محمية أكثر مما أكون عليه وأنا محاطة بأبوي أو وأنا في المعبد في أيام السبت .

كم كان جميلاً! يجب علي ألا أقول ذلك ، ولكن الصحيح هو أنني لم أر أبداً من قبل كائناً بمثل هذا التناسق والرقّة ، بتقاطيع لها مثل هذا الكمال وصوت بمثل هذه العذوبة . كنت أكاد لا أستطيع النظر إليه ؛ فكلما مرت عيناى على خديه اللينين ، على جبهته النقية أو على رموشه الطويلة المحيطة بعينيه الواسعتين والممتلئتين بالطيبة والحكمة ، أشعر في وجهي بفجر حار . أكون هذا هو ما تشعر به الفتيات ، في كامل أجسادهن عندما يقعن في الحب ؟ أهذا هو الحر الذي لا يأتي من الخارج ، وإنما من داخل الجسد ، من أعماق القلب ؟ صديقتي في القرية يتحدثن كثيراً عن هذا الأمر ، أنا أعرف ذلك ، ولكنني عندما أقرب منهن يصمتن لأنهن يعرفن أنني خجولة جداً وأن بعض المواضيع - مثل موضوع الحب مثلاً - تسبب لي اضطراباً شديداً فيحمر وجهي وأبدأ بالارتعاش . أكون ذلك سيئاً ؟ استير تقول إنني لن أعرف الحب أبداً لأنني هيابة وخجولة . وتحاول ديبورا دائماً أن تشجعني : « عليك أن تكوني أكثر جرأة وإلا ستكون حياتك حزينة » .

ولكن الشاب الوردي يقول إنني أنا المختارة ، وإنهم قد اختاروني من بين كل النساء . من هم ؟ لماذا ؟ لأي شيء ؟ أي عمل طيب أو خبيث قمتُ به لكي يفضلني أحدهم على سواي ؟ أنا أعرف جيداً ضالة قيمتي . هناك في القرية فتيات أجمل وأنشط ، أقوى ، أكثر تنوراً ، وأشد شجاعة . فلماذا يختارونني أنا إذن ؟ لأنني أكثر تحفظاً وذعراً ؟ أمن أجل صبري ؟ لأنني أعامل الجميع جيداً ؟ أبسبب الحنان الذي أحلب به عنزتنا والسعادة التي يبعثها في القيام بأعمال البيت اليومية البسيطة ، مثل تنظيف البيت ، وسقاية

الحديقة ، وإعداد الطعام لأبوي ؟ لا أظن أن لديّ مزايا أكثر من هذه ، إذا كانت هذه مزايا وليست عيوباً . لقد قالت لي ديبورا قبل حين : « أنتِ بلا طموح يا مريم » . وربما كان هذا صحيحاً . وماذا سأفعل إذا كنت قد ولدت هكذا : فالحياة تروقني وتبدو لي الدنيا جميلة بحالها التي هي عليها . لهذا يقولون إنني بسيطة . وأنا كذلك دون شك ، لأنني أتجنب التعقيدات دوماً . ولكن لدي مع ذلك بعض الرغبات . فأنا أرغب ، مثلاً ، في ألا تموت عنزتي مطلقاً . عندما تلحس يدي أفكر في أنها ستموت يوماً وعندئذ ينقبض قلبي . التآلم ليس جيداً . وأنا أرغب كذلك في ألا يتآلم أحد .

لقد قال الشاب أشياء سخيفة ، ولكنه قالها بطريقة شجية وبريئة بحيث لم أتجراً على الضحك منه . سيباركونني أنا وثمره بطني . هذا ما قاله . أياكون ساحراً يا ترى ؟ ألا تكون كلماته هذه رقية لمصلحة شيء أو أحد أو ضده ؟ لم أعرف كيف أسأله . واكتفيت بالرد على كلماته باللعثة التي أرد بها عندما يعلمني أبوي أو يؤنباني : « لا بأس ، سأفعل ما هو متوجب عليّ يا سيدي » . وغطيت بطني بيدي مذعورة . أعني بقوله « ثمرة بطني » أنه سيكون لي ابن ؟ يا للسعادة التي سأشعر بها . عسى أن يكون الوليد ذكراً عذباً وسرياً مثل الشاب الذي أتى لرؤيتي .

لست أدري إذا ما كان علي أن أفرح أم أحزن لهذه الزيارة . أهجس بأن حياتي ستتغير بسببها . إلى أي حال ستتغير ؟ هل سيكون خيراً لي أم نكبة ؟ لماذا أشعر فجأة بالخوف ، وأنا في غمرة البهجة التي يبعثها فيّ تذكر كلمات ذلك الشاب العذبة ، أشعر فجأة وكأن الأرض تنشق وتظهر عند قدمي هوة ممتلئة بمسوخ مرعبين يريدون إجباري على القفز إليها .

لقد قال أشياء جميلة ، لها رنين عذب ، ولكن من الصعب فهمها . وكان مما قاله : « قدر استثنائي ، قدر خارج على المألوف » . ما الذي

يعنيه ؟ فطريقتي في الحياة تخصني بقدرٍ أقرب إلى المألوف ، إلى ما هو عادي . وكل ما يميز أو يسبب الاختلاف ، أي حركة أو عمل يخرق العادة أو العرف يكبحني ويجردني من السلاح . عندما يبالغ أحدهم أمامي ، ويصير أضحوكة ، يلتهب وجهي وأشعر بالشفقة عليه . ولستُ أشعر بالراحة إلا عندما أحس بأن الآخرين لا يلحظونني . « مريم متكئة جداً حتى أنها تبدو غير مرئية » ، هكذا تقول لي جارتني راكيل مازحة . وأنا أحب سماع ذلك . أجل ؛ فكوني غير مرئية يجعلني سعيدة .

ولكن هذا لا يعني أنني بلا أحلام وبلا أحاسيس . وإنما أنني لم أشعر بالانجذاب يوماً نحو ما هو استثنائي . صديقتي يسبين لي الذهول حين أسمعهن ؛ إنهن يرغبن في السفر ، وفي امتلاك عبيد كثيرين ، وفي الزواج من ملك . أنا تخيفني هذه التخييلات . فما الذي سأفعله في بلاد أخرى ، بين أناس مختلفين عن معشري ، مستمعة إلى لغات أخرى ؟ وأي ملكة مثيرة للشفقة ساكون أنا التي أفقد صوتي وترتعش يداي حين يكون هناك غريب يسمعي . ما أطلبه من الحياة هو زوج شريف ، وأبناء أصحاء وحياة هادئة ، دون خوف ولا جوع . ما الذي عناه بقوله « قدر استثنائي ، خارق للمألوف » ؟ لقد منعتني خجلي من الرد عليه بالرد المناسب ؛ « أنا لستُ مهيأة لهذا ، أنا لستُ هذه التي تتكلم عنها . من الأفضل أن تذهب إلى حيث ديبورا الجميلة أو إلى جوديت فهي أشد حزمًا ، أو إلى بيت راكيل ، الفتاة الذكية . كيف يمكن لك أن تبشرني أنا بأنني سأكون ملكة بني البشر ؟ كيف تقول إنهم سيصلون لي بكل اللغات وأن اسمي سيجتاز العصور مثلما تجتاز الكواكب السماء ؟ أنت أخطأت بالفتاة والبيت يا سيدي . فأنا شيء ضئيل لا أنفع لهذه الأمور العظيمة . بل إنني أكاد لا أكون موجودة » .

وقبل أن ينصرف الشاب ، انحنى وقبل طرف عباة تي . ولثانية واحدة ،

رأيت ظهره : كان فيه قوس قزح ، وكما لو أن جناحي فراشة قد حطا هناك .
لقد انصرف الآن وخلف رأسي يضج بالشكوك . لماذا ناداني بالسيدة
مع أنني ما أزال عازبة ؟ لماذا دعاني ملكة ؟ لماذا لمحت بريق دموع في
عينيه عندما تنبأ لي بأنني سأتعذب ؟ لماذا دعاني أمأ وأنا ما أزال عذراء ؟
ما الذي يحدث ؟ ما الذي سيصيني بدءاً من هذه الزيارة ؟

خاتمة

- ألا تشعر بتأنيب الضمير أبداً يا فونتشيتو ؟ - سألته خوسينيانا فجأة . كانت ترتب وتطوي فوق كرسي الملابس التي يخلعها الطفل كيفما اتفق ويلقي بها بعد ذلك كمن يقوم بتمريرات في كرة السلة .

وذهل الصوت البلوري :

- تأنيب ضمير ؟ ومم سيؤنبني ضميري يا خوستيتا ؟

وبينما هي منحنية لتلتقط زوج جوارب ذات معينات خضراء ورمانية ، راقبته من خلال مرآة الخزانة : كان ألفونسو قد جلس على حافة السرير وبدأ بارتداء سروال البيجاما ، وهو يمدد ويُقلص ساقاه . ورأت خوستينيانا قدميه البيضاوين الرشيقتين تطلان بعكبيهما المتوردين ، رأتهما تحركان الأصابع العشرة وكأنهما تمارسان تمارين رياضية . وأخيراً ، التقت نظرتها بنظرة الطفل الذي ابتسم لها على الفور .

- لا تبدي لي هذا الوجه الذي مثل ناموسة ميتة يا فونتشو - قالت وهي تنهض . ضربت مؤخرتها وتنهدت وهي ترى الطفل الحائر . وأحست مرة أخرى بأن الغضب سيهزمها ، فأضافت : - أنا لستُ هي . فلن تتمكن من

خداعي أو شرائي بإظهار وجه الطفل القديس هذا . قل لي الحقيقة مرة واحدة . ألا تشعر بتأنيب الضمير ؟ ولو بقدر قليل ؟

أطلق ألفونسو قهقهة مدوية وهو يفتح ذراعيه ، وهوى على ظهره فوق السرير . حرك ساقيه المرفوعتين عالياً وكأنه يرمي ويتلقى كرة متخيلة . كانت ضحكته قوية وبليغة ولم تلمح خوستينيانا فيها أي ظل من السخرية أو النية الخبيثة . وفكرت : « اللعنة ، من يستطيع أن يفهم هذا الطفل ذا المخاط » .
- أقسم لك بالله إنني لا أعرف عم تتكلمين - هتف الطفل وهو يستوي جالساً . وقبل أصابعه المتصالبة بقناعة - . أم أنك توجهين لي أحجية يا خوستيتا ؟

- اندس في الفراش دفعه واحدة لأنك قد تصاب بالرشح . ليست لدي أي رغبة في العناية بك .

أطاعها ألفونسو على الفور . قفز ، رفع الملاءات ، وانزلق ما بينها برشاقة ورتب وضع الوسادة وراء ظهره . وبقي بعد ذلك ينظر إلى الفتاة بدلال ، وكأنه سيتلقى جائزة . كان شعره يغطي جبهته وكانت عيناه الزرقاوين تلمعان في الظلمة الخفيفة السائدة ، لأن ضوء المصباح الخافت كان يتوقف عند خديه . وكان فمه الذي بلا شفيتين منفرجاً قليلاً يلمع فيه صف الأسنان البيضاء التي نظفها بالفرشاة للتو .

قالت هي :

- إنني أكلمك عن دونيا لوكريشيا أيها الشيطان الصغير ، وأنت تعرف ذلك جيداً ، فلا تتصنع . ألا يحزنك ما فعلته بها ؟

- آه ، أنت تتكلمين عنها - هتف الطفل بخيبة أمل ، وكأن الموضوع منته وممل بالنسبة إليه . وهز كتفيه ولم يتردد لحظة عندما أضاف قائلاً : -
ولماذا سأحزن من أجلها ؟ لو أنها أُمي لكنت حزنت . هل هي أُمي ؟

لم يكن هناك ضغينة ولا غضب في صوته أو في ملامحه وهو يتكلم عنها ؛ ولكن هذه اللامبالاة بالتحديد هي التي كانت تثير غضب خوستينيانا . - جعلت أباك يطردها من هذا البيت مثل كلبة - همست منطفئة ، حزينة ، دون أن تلتفت نحوه ، وعيناها مصوبتان على الأرضية الخشبية اللامعة - . كذبت عليها أولاً ثم كذبت عليه بعد ذلك . جعلتهما ينفصلان حين كانا في أوج سعادتهما . لا بد أنها الآن أتعس امرأة في الدنيا ، وكل ذلك بسببك . ودون ريغوبيرتو كذلك ، فمنذ انفصل عن خالتك صار يبدو مثل روح محزونة . ألم تلاحظ كيف أثقلت السنون كاهله خلال أيام قليلة ؟ ألا يُشعرك هذا أيضاً بتأنيب الضمير ؟ لقد تحول إلى متدين وبليد لم أعرف له مثيلاً . الرجال يتحولون هكذا عندما يشعرون بأنهم سيموتون . وكل هذا بسببك أيها الخبيث!

التفتت نحو الطفل مذعورة ، وهي تظن بأنها قد قالت أكثر مما يستوجبه الحذر . فمنذ أن حدث ما حدث لم تعد تثق بأحد ولا بشيء في هذا البيت . كان رأس فونتشيتو قد تقدم باتجاهها بينما مسخروط ضوء المصباح يحيطه مثل تاج . وكان ذهوله يبدو دون حدود .

- ولكنني لم أفعل شيئاً يا خوستيتا - تلعثم وهو يرمش ، ورأت هي أن تفاحة آدم تعلو وتنخفض في عنقه مثل حيوان عصبي - . أنا لم أكذب أبداً على أحد ، وخصوصاً على بابا .

أحست خوستينيانا بوجهها يتوقد :

- لقد كذبت على الجميع يا فونتشيتو! - رفعت صوتها وهي تقول ذلك . ولكنها صمتت ، مغلقة فمها بيدها ، إذ سُمع في تلك اللحظة سقوط الماء في المغسلة في الطابق العلوي . كان دون ريغوبيرتو قد بدأ تنظيفاته الليلية التي صارت ، منذ ذهاب دونيا لوكريشيا ، أقصر بكثير . إنه ينام الآن باكراً ولم

يعد يدندن أغنيات بينما هو يغتسل . وعندما عادت خوستينيانا إلى
التكلم ، فعلت ذلك بصوت خافت ، موبخة الطفل بإصبعها السبابة : -
وكذبت عليّ أنا أيضاً بالطبع . عندما أفكر في أنني صدقتُ كلامك عن أنك
ستنتحر لأن دونيا لو كريثيا لم تعد تحبك .

امتقع الآن وجه الطفل فجأة .

- لم يكن كذباً - قال لها وهو يمسكها من ذراعها ويهزها - . كان ما
قلته صحيحاً ، ومثلما قلته لك . فلو واصلت خالتي معاملتي مثلما فعلت في
تلك الأيام لكنت قتلت نفسي . أقسم لك أنني كنت سأفعل يا خوستيتا !
سحبت الفتاة ذراعها منه باستياء وأشاحت بوجهها مدممة :

- لا تحلف باطلاً لأن الرب سيعاقبك .

مضت إلى النافذة ، وحين أزاحت الستارة ، لاحظت أن بعض النجوم
تسطع متألقة في السماء . وقفت تتأملها بدهشة . كم هو نادر رؤية هذه
الأنوار المتألثة بدلاً من الضباب المعهود . وعندما التفتت ، كان الطفل قد
تناول الكتاب عن الكوميدينو ورتب وضع الوسادة مستعداً للقراءة . وكان
يبدو عليه مجدداً الاطمئنان والسعادة ، والمصالحة مع ضميره ومع العالم .

- أخبرني شيئاً واحداً على الأقل يا فونتشيتو .

كان ماء المغسلة في الأعلى يسيل في خريز متواصل ومتشابه ، وكان
هناك هران يموءان على السطح في صراع أو جماع .

- أي شيء يا خوستيتا ؟

- هل خططت لكل شيء منذ البداية ؟ التظاهر بأنك تحبها كثيراً ،
وصعودك على السطح بينما هي تستحم ، ورسالة التهديد بقتل نفسك . هل
فعلت كل ذلك كذباً ؟ هل فعلت كل ذلك من أجل أن تحبك هي فتتمكن
حينئذ من اتهامها أمام أبيك بأنها تُفسدك ؟

وضع الطفل الكتاب على الكوميدينو مشيراً إلى الصفحة بقلم رصاص .
وأثارت وجهه تكشيرة غضب .

- أنا لم أقل أبداً أنها تفسدني يا خوستيتا! - صاح مهتاجاً وضارباً
الهواء بإحدى يديه - هذا ما تخترعينه أنتِ ، لا تخادعي . أبي هو الذي قال
إنها تُفسدني . ما فعلته أنا هو كتابة موضوع الإنشاء ذاك ، وقد رويت فيه
ما كنا نفعله . الحقيقة فقط . لم أكذب في أي شيء . وأنا لست مذنّباً في أنه
قد طردها . وربما كان صحيحاً ما قاله . ربما كانت تُفسدني بالفعل . إذا
كان أبي يقول ذلك ، فلأنه صحيح . ولماذا تقلقين كثيراً لهذا ؟ أكنت
تفضلين الذهاب معها على البقاء في هذا البيت ؟

أسندت خوستينيانا ظهرها إلى الخزانة حيث يضع الفونسو كتب
المغامرات ، والجوائز وشهادات التقدير والصور المدرسية . أغمضت عينيها
وفكرت : « أجل ، كان يجب عليّ أن أغادر منذ زمن » . فهي تشعر ، منذ
أن ذهبت دونيا لوكريثا ، بهاجس أن الخطر يتهددها هي أيضاً هنا وتعيش
على الجمر ، مع الإحساس الدائم بأنها إذا ما سهت لحظة واحدة فستقع أيضاً
في كمين يكون خروجها منه أسوأ حالاً من الخالة . لقد كانت مواجهتها
للطفل بهذه الطريقة عملاً متهوراً . ولن تفعل ذلك أبداً بعد الآن لأن
فونتشيتو ليس طفلاً ، بالرغم من كونه كذلك في السن ، وإنما هو شخص
صاحب نزوات والتواءات أكثر من كل الشيوخ الذين عرفتهم . ومع ذلك ، مع
ذلك ، من يستطيع أن يصدق هذا كله حين ينظر إلى هذا الوجه العذب ، إلى
تقاطيع الدمية هذه .

وسمعه يقول لها بأسف :

- هل أنتِ غاضبة مني على شيء ؟

من الأفضل عدم استشارته أكثر ؛ من الأفضل التصالح معه .

- لا ، لستُ غاضبة - ردت وهي تتقدم باتجاه الباب - . لا تُطِلِ القراءة ، فغداً عليك الذهاب إلى المدرسة . طابت ليلتك .
- خوستيتا .

التفتت لتنظر إليه وقد أصبحت يدها على مقبض الباب .
- ماذا تريد ؟

- أرجوك ألا تغضبي مني . - كان يتوسل إليها بعينيه وبرموشه الطويلة ، يرجوها بفمه المغضن كمن هو موشك على البكاء ، وبغمازتي خديه النابضتين - . أنا أحبك كثيراً . أما أنتِ بالمقابل فتكرهيني ، أليس كذلك يا خوستيتا ؟

كان يتكلم وكأنه سينفجر بالبكاء .

- لستُ أكرهك أيها الأحمق... كيف يمكنني أن أكرهك .

كان الماء ما يزال يتدفق في الطابق العلوي بصوت رتيب ، تقطعه دفقات قوية قصيرة ، وكانت تُسمع كذلك بين حين وآخر ، خطوات دون ريغوبيرتو وهو يتنقل من جهة إلى أخرى في الحمام .

- إذا كنت لا تكرهيني فعلاً ، فأعطني قبلة وداع على الأقل . مثلما

كنت تفعلين في السابق ، هل نسيتِ ؟

ترددت لحظة ، ولكنها وافقت بعد ذلك . انحنت وقبلته بسرعة من شعره . ولكن الطفل أوقفها ملقياً بذراعيه حول عنقها وهو يبدي لها التظارف والتحبب إلى أن ابتسمت له خوستينيانا رغم إرادتها . فحين رآته في تلك الحال ، يُخرج لسانه ويقلب عينيه ، ويهز رأسه ، ويرفع كتفيه وينزلهما ، لم يعد يبدو لها الشيطان القاسي الذي يحمله في داخله ، وإنما الطفل الجميل الذي كانه من الخارج .

- كفى ، كفى ، دعك من التهريج وإلى النوم يا فونتتشو .

عادت تقبله من شعره وتنهدت . وعلى الرغم من أنها عاهدت نفسها
للتو ألا تحدثه ثانية في تلك المسألة ، إلا أنها سمعت نفسها تقول
متسرعة ، وهي تتأمل ذلك الشعر الذهبي الذي يلامس أنفها :
- هل فعلت كل ذلك من أجل دونيا إيلويسا ؟ لأنك لا تريد أن يحل
أحد محل أمك ؟ لأنك لم تتحمل أن تحتل دونيا لوكريثيا مكان أمك في هذا
البيت ؟

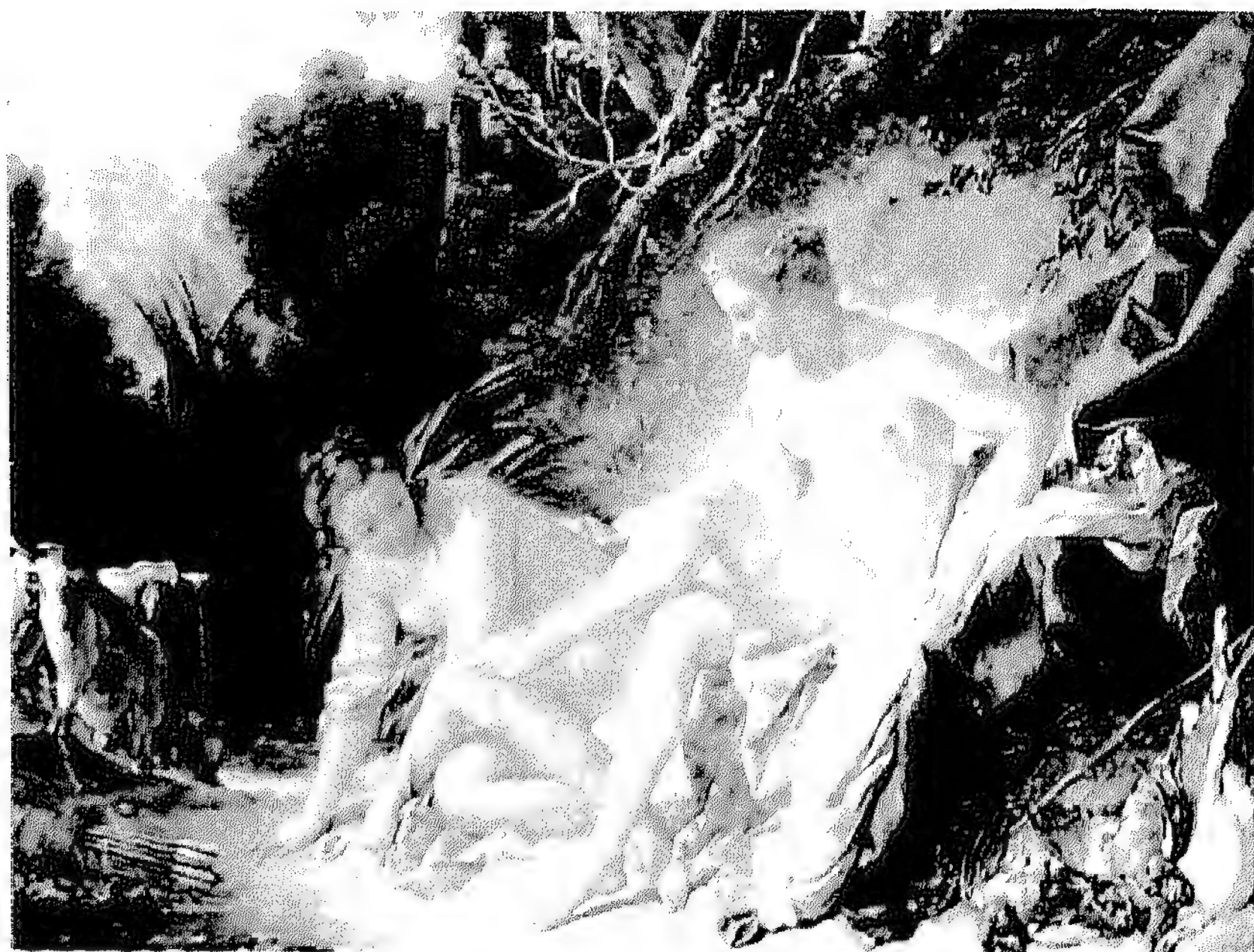
أحست بأن الطفل قد أصيب بالتشنج والصمت ، وكأنه يفكر بما يجب
عليه أن يقول . ثم ضغط الذراعان النحيلان اللذان يحيطان بعنقها لإجبارها
على إنزال رأسها بحيث يمكن للقم الصغير الذي بلا شفيتين أن يدنو من
أذنها . ولكنها بدلاً من أن تسمعه يهمس لها بالسر الذي تنتظره ، أحست
بأنه يعضها ويقبلها من حافة أذنها وبداية عنقها إلى أن جعلها ترتعش من
الدغدة .

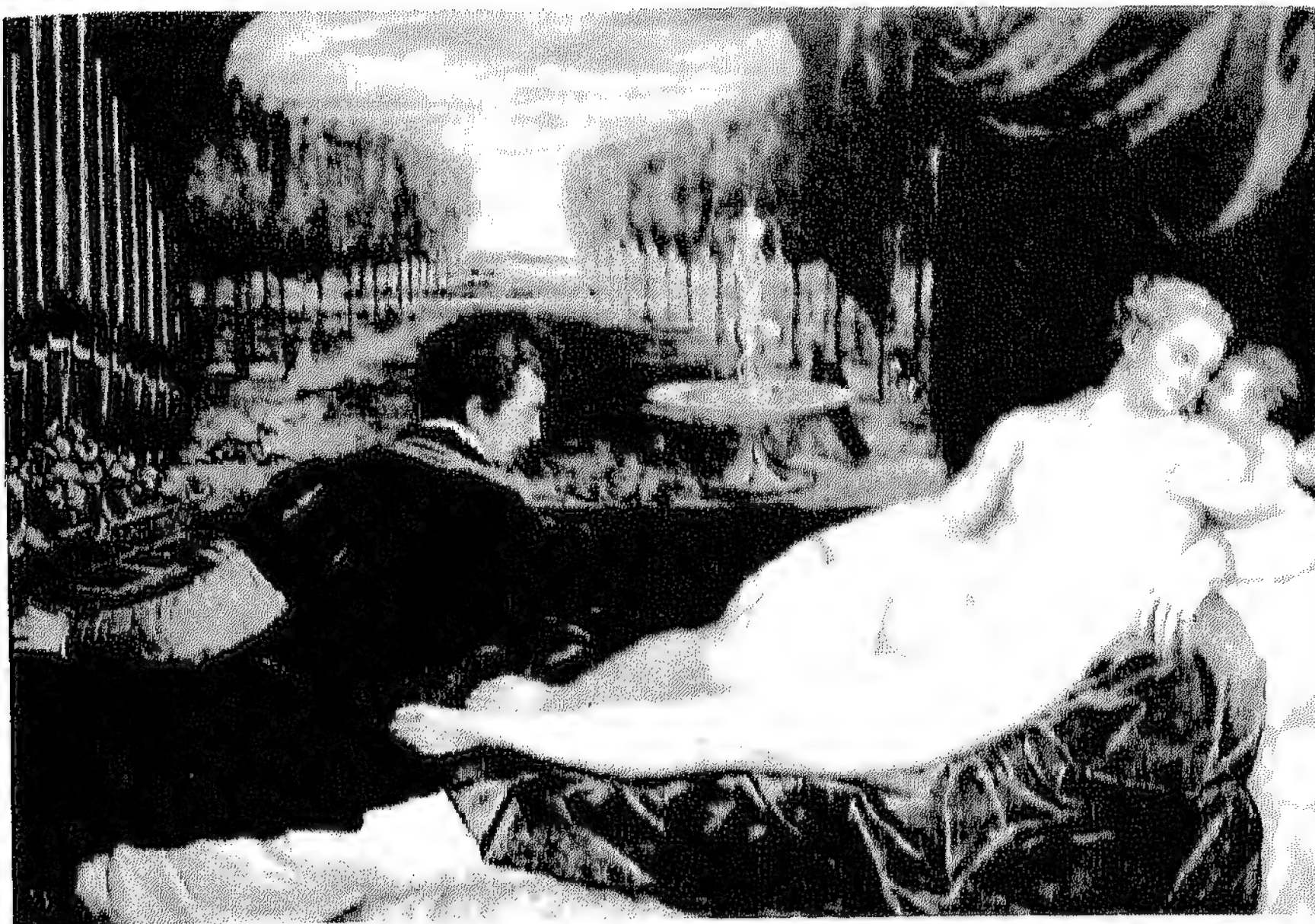
ثم سمعته يهمس برقة مخملية :
- لقد فعلت ذلك من أجلك أنت يا خوستيتا ، وليس من أجل أمي . لكي
تغادر هذا البيت ونبقى وحدنا ، أنا وأنت ، مع بابا . لأنني أح ...
وأحست الفتاة فجأة بقم الطفل يلتصق بفمها .
- رباه ، رباه - تملصت من بين ذراعيه وهي تدفعه وتبعده عنها .
وخرجت متعثرة من الغرفة ، تمسح فمها بيدها وترسم إشارة الصليب . وكان
يبدو لها أن قلبها سينفجر من الغضب إذا هي لم تستنشق هواء . - رباه ،
رباه .

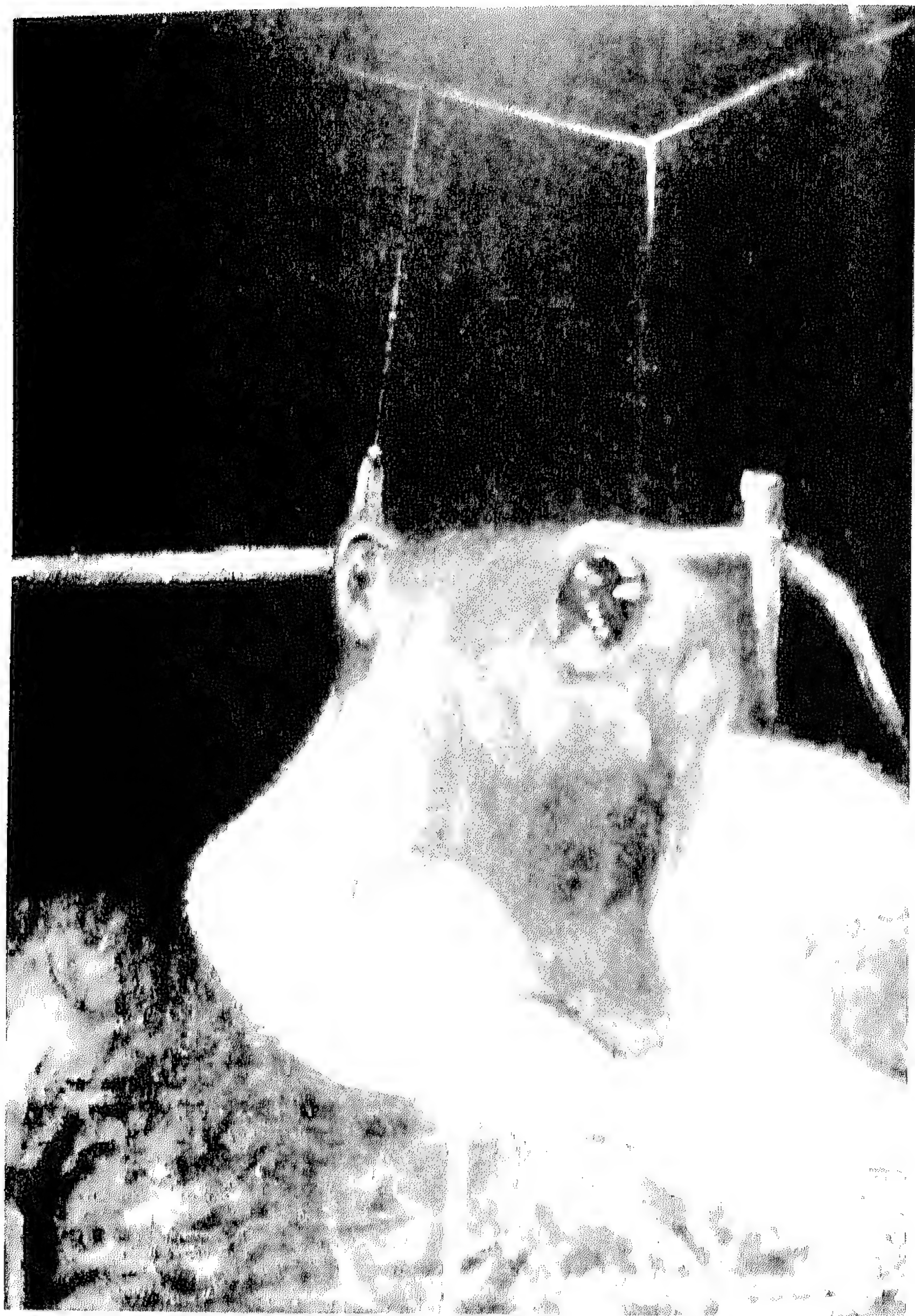
وحين صارت خارجاً ، في الممر ، سمعت فونتشييتو يضحك مرة
أخرى . ليس بتهكم ، ولا ساخراً من الحياء والسخط اللذين سيطرا عليها .
بل بسعادة حقيقية ، وكأنه يحتفل بأمر ظريف . كانت ضحكته الطازجة ،

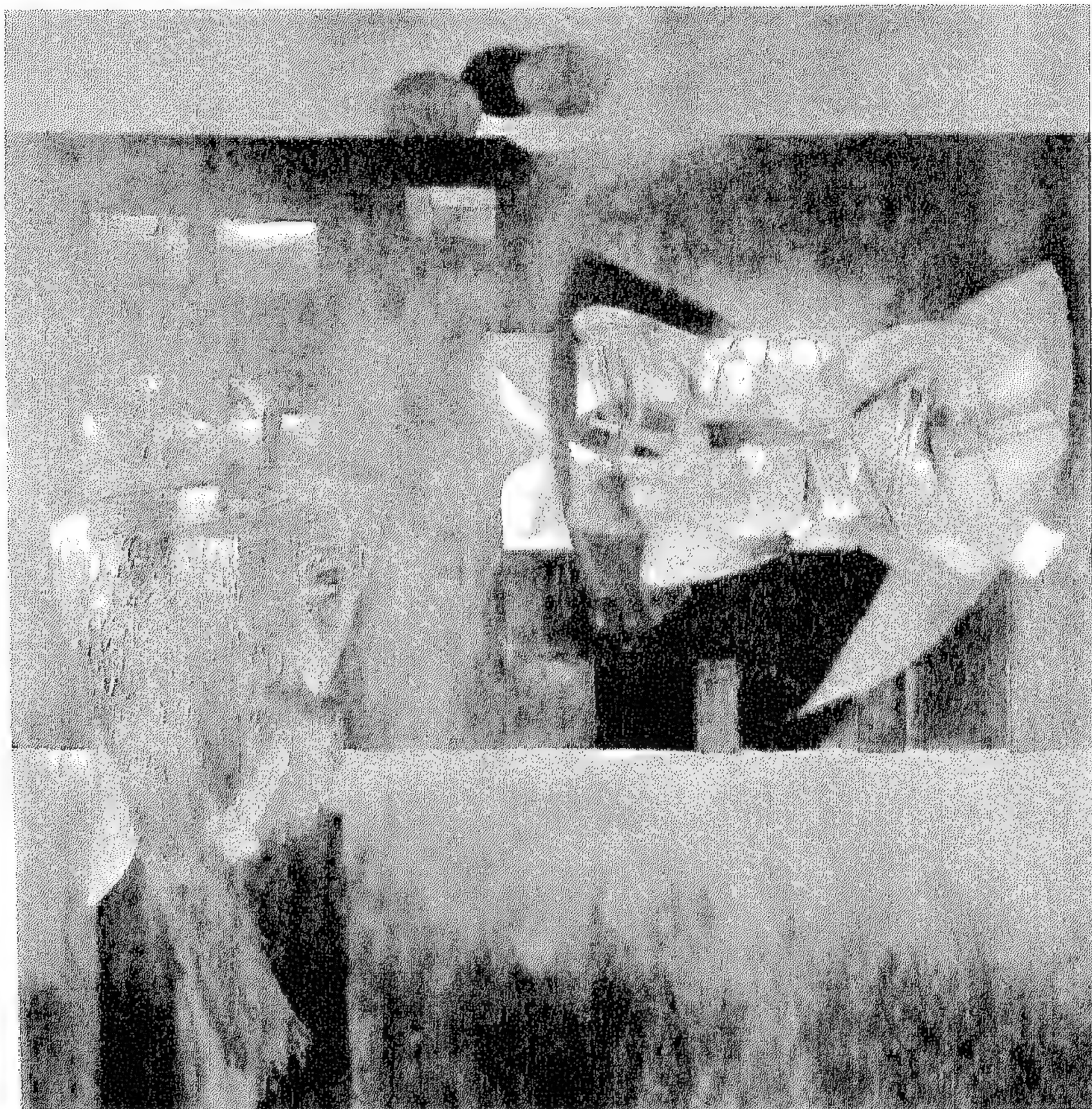
المدوية ، الصحية ، الطفولية تكنس صوت ماء المغسلة ، وتبدو وكأنها تملأ
الليل كله وتصعد حتى تلك النجوم التي أطلت ، لمرّة ، في سماء ليما
الموحلة .

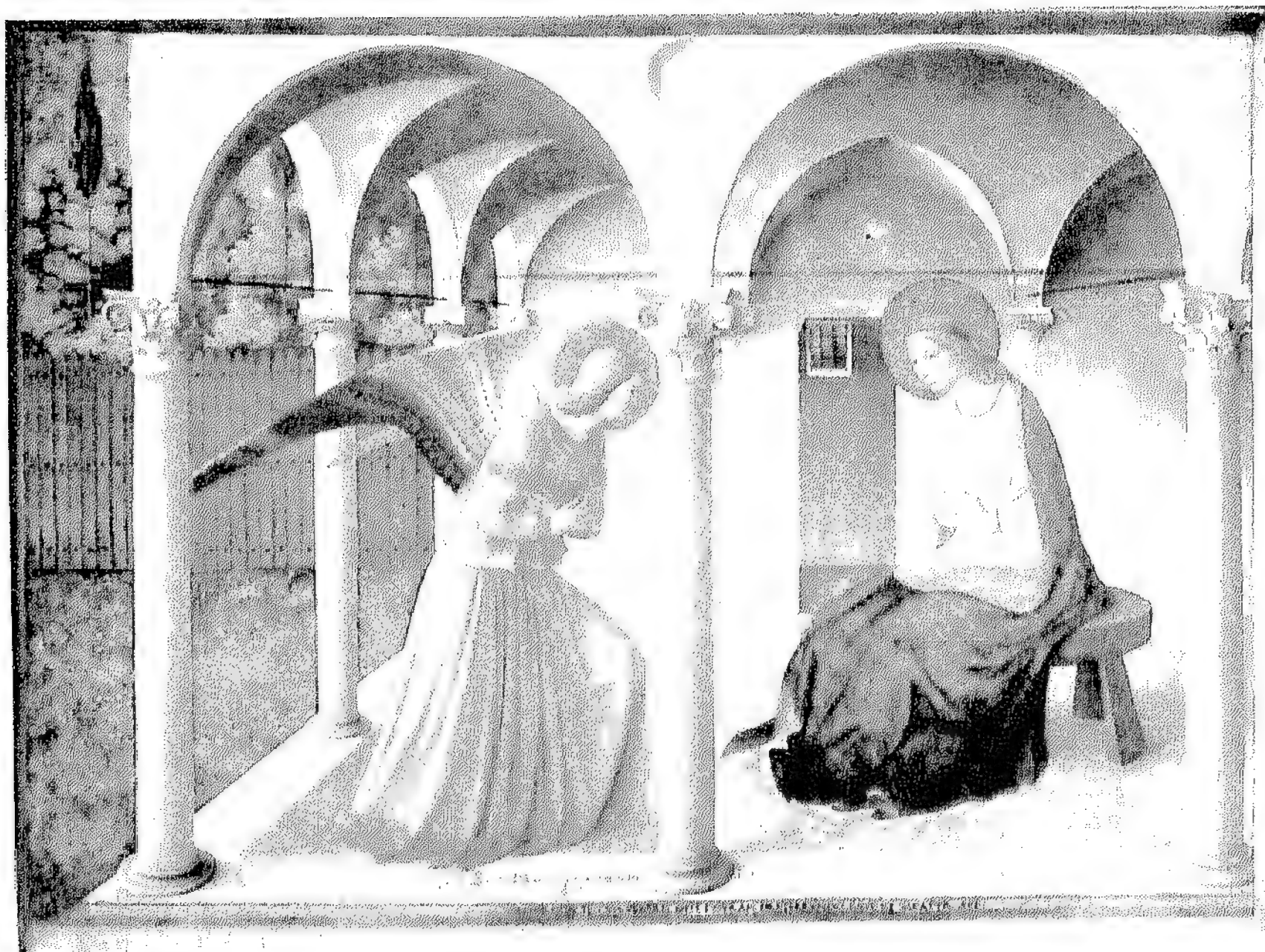












فهرس اللوحات

- (١) جاكوب جورداننس ، « قنداوولس ملك ليديا يعرض زوجته على الوزير الأول جيجس » (١٦٤٨) ، رسم زيتي على القماش ، متحف استوكهولم الوطني .
- (٢) فرانسيس بوشير ، «ديانا بعد حمامها» (١٧٤٢) ، رسم زيتي على القماش ، متحف اللوفر ، باريس .
- (٣) تيزيانو فيسيليو ، «فينوس مع أمور والموسيقى» ، رسم زيتي على القماش ، متحف اليرادو ، مدريد .
- (٤) فرانسيس بيكون ، «رأس I» (١٩٤٨) ، رسم بالزيت ، مجموعة ريتشارد س . زيسلر ، نيويورك .
- (٥) فرناندو دي زيزلو ، «طريق إلى مينديتا ١٠» (١٩٧٧) ، أكريليك على قماش ، مجموعة خاصة .
- (٦) فرا آنجيليكو ، «البشارة» (١٩٢٧) فريسكو ، دير سان ماركوس ، فلورنسا .

ولد ماريو بارغاس يوسا في اريكيبا (البيرو) عام ١٩٣٦ .
برز في عالم الأدب بعد نشر روايته الأولى «المدينة
والكلاب» التي نال عليها جائزة بوليوتيكا بريفي عام
١٩٦٢ وجائزة النقد عام ١٩٦٣ ، وترجمت على الفور إلى
أكثر من عشرين لغة أجنبية . وفي عام ١٩٦٦ ظهرت
روايته الثانية «البيت الأخضر» التي نالت جائزة النقد لعام
١٩٦٦ وجائزة روميلو غايغوس .

من أعماله الروائية الأخرى : «محادثة في
الكتدرائية» ، و«بانتاليون والزائرات» و«الخالة خوليا
والمخربش» ، والرواية التاريخية «حرب نهاية العالم» ،
و«قصة ماتيا» ، و«من قتل بالومينو موليرو؟» و«ليتوما
في الانديز» (جائزة بلانيتا ١٩٩٣) وأصدر أخيراً رواية
«دفاتر دون ريفوبيرتو» (١٩٩٧) التي تعتبر استمراراً
لرواية «امتداح الخالة» .

حصل عام ١٩٩٤ على «جائزة ثريانتس للآداب» وهي
أهم جائزة للآداب الناطقة بالاسبانية .

له عدد من الدراسات النقدية العميقة ، منها «غارسيا
ماركيز ، قصة محطم آلهة» (١٩٧١) ، و«المجنون
الأبدى» ، فلوبيرو ومدام بوفاري» (١٩٧٥) ، إضافة إلى
كتاب بعنوان «السمة في الماء» ويروي فيه تجربته
السياسية كمرشح لرئاسة الجمهورية في البيرو .